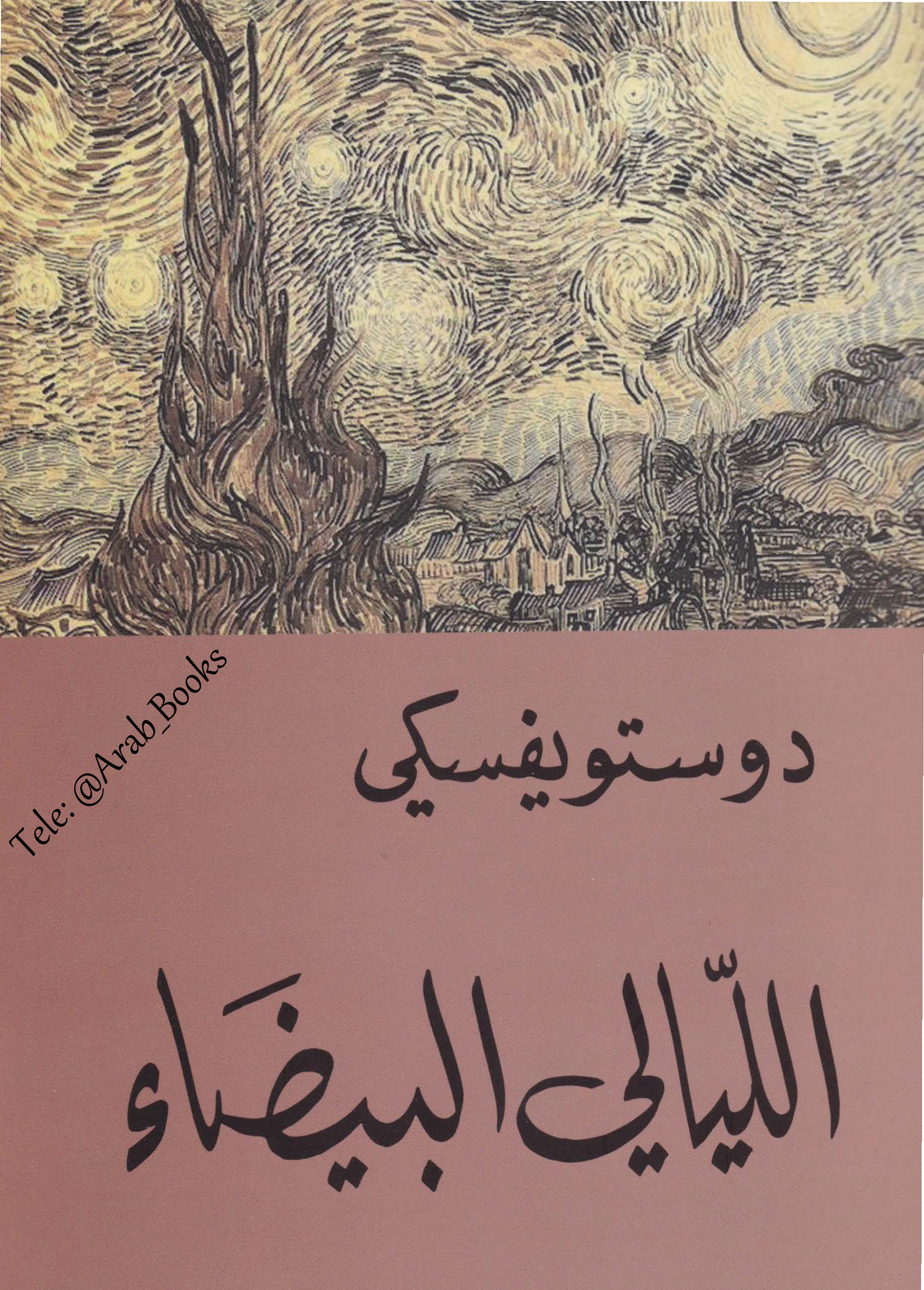


دوستويفسكي

اللّيالي البيضاء

المركز الثقافي العربي

دوستويفسكي

الليالي البيضاء

دوستويفسكي

الليالي البيضاء

رواية عاطفية

(مقاطع من ذكريات حالم)

ترجمها عن الروسية

إدريس الملياني


المركز الثقافي العربي

الكتاب

الليالي البيضاء

تأليف

دوستويفسكي

ترجمة

إدريس الملياني

الطبعة

الأولى، 2016

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-826-8

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

(. . .) ام تُراهُ خُلق من أجل ذلك
لكي يبقى ولو للحظة
على مقبرة من قلبك .

إيفان تورغينيف

الليلة الأولى

كانت ليلة رائعة، أيها القارئ العزيز، ومثل هذه الليلة الجميلة، ربما لا نراها الا عندما نكون في ريعان الشباب .

كانت السماء مرصعة بالنجوم، وشديدة الصفاء، بحيث إن من يتطلع إليها لا بد أن يتساءل دون وعي: أيمكن، تحت مثل هذه السماء، أن يعيش مختلف أنواع الناس ذوي النفوس الحاقدة والمتقلبة الأهواء؟ وهذا أيضاً، سؤال ساذج، أيها القارئ العزيز، ساذج جداً، ولكنني أسأل الله أن يبعثه في نفسك كلما كان ذلك ممكناً! وأنا أتكلم عن الأشرار والمتقلبي الأطوار، لم أستطع أن لا أفكر حتى في سلوكي - النموذجي - طوال النهار.

ومنذ الصباح، استولت علي كآبة غريبة. بدا لي فجأة أنني، أنا، الوحيد، قد هجرني الناس جميعاً، نعم، كل الناس تخلوا عني. هنا، بالتأكيد، لكل شخص حق السؤال: من هم إذن، هؤلاء الجميع؟ لأنني أقمت ثماني سنوات في بطرسبورغ[1] ولم أستطع أن أقيم تقريباً أية علاقة صداقة. ولكن ما حاجتي إلى علاقات وصداقات؟ أنا الآن تعرفت بمدينة بطرسبورغ كلها،

لهذا السبب كان لدي الانطباع بأنهم هجروني جميعاً عندما نهضت بطرسبورغ كلها، والتحقت فجأة بمنازلها الريفية.

فاستبد بي الخوف من أن أبقى وحيداً، وقد تسكعت في المدينة، خلال ثلاثة أيام، معانياً من اضطراب عميق، دون أن أفهم شيئاً مما يحدث لي. طفت بشارع نيفسكي[2]، تنزهت في الحديقة، تجولت على طول الأرصفة، لم أصادف وجهاً من تلك الوجوه التي ألفت لقاءها في عين المكان، وفي وقت معلوم، وطوال السنة.

لم يكونوا يعرفونني، طبعاً، ولكن أنا، كنت أعرفهم جميعاً. كنت أعرفهم عن كثب، ودرست ملامحهم تقريباً - فكانوا يعجبونني حين يسرون، وأشعر بالحزن لما يتكدرون.

أصبحت تقريباً صديقاً للعجوز القصير، الذي ألتقي به، في جميع أيام الله، على ضفة فونتانكا[3].

تنم هيأته عن التأمل، والتعالي، ويدمدم دائماً بخفوت، ويهز يده اليسرى، وهو يمسك بيده اليمنى عصاً عقداء وذات مقبض ذهبي. وقد لاحظني، أيضاً، وأظن أن روحينا قد تجاوبتا. ولو أنني، مثلاً، لم أحضر، في الوقت المحدد، إلى هذا المكان من قناة فونتانكا، أنا متأكد أنه سيصاب بالاكتئاب.

لذلك كان أحدنا يحيي الآخر، إيماء أو انحناء، ولا سيما عندما نكون في مزاج رائق.

ذات يوم ليس ببعيد، لم نلتقِ يومين كاملين، ولما التقينا في اليوم الثالث، ارتفعت يدانا نحو قبعتينا، ولكننا لم نلبث أن

انتبهنا، فأنزلنا يدينا، ومررنا، أحدنا قرب الآخر، بكل تعاطف وتحاب. وأعرف حتى البيوت.

في أثناء نزهاتي، كل منزل يبدو لي كأنه راكض أمامي في الشارع، ينظر إلي من جميع نوافذه ويقول لي تقريباً: «مرحباً، يا سيدي، كيف صحتك؟ أنا أيضاً، حمداً لله، لا بأس، غير أنهم في شهر مايو، سيضيفون إلي طابقاً جديداً». أو يقول لي: «كيف حالك؟ أنا، غداً، سيشرعون في ترميمي». أو يقول لي أيضاً: «كدت أن أحترق، وكم كان خوفي رهيباً»... إلخ. ولدي من بين البيوت منازلي المفضلة، من رفاقي المقربين.

أحد هذه المنازل ينوي أن يتعالج هذا الصيف، عند مهندس معماري.

سأمر خصيصاً لمشاهدته كل يوم، حتى لا يكون العلاج أسوأ من المرض، وأسأل الله أن يحفظه!

ولكنني لن أنسى أبداً قصة هذا المنزل الصغير جداً، واللطيف كثيراً، والوردي الفاتح اللون. إنه منزل من حجر في غاية الجمال، كان يرنو إلي بكثير من اللطف، وينظر بكثير من الفخر إلى البيوت المجاورة الخرقاء، بحيث كان قلبي يُسر عندما يحدث أن أمر من أمامه. فجأة، في الأسبوع الأخير، بينما كنت أسلك هذا الشارع، وأنظر إلى صديقي، سمعت صرخته الحزينة: «إنهم سيعيدون صبغي باللون الأصفر!»، وحوش! همجيون! ليست لهم أدنى رأفة بأي شيء. لا بأعمدة، ولا بأفاريز! وصار صديقي أصفر اللون، أصفر كالكناري. وأصبحت تقريباً صفراوي المزاج.

وإلى الآن، ما زلت لا أستطيع الذهاب لرؤية صديقي الشقي، الذي شوهوه وصبغوه بلون إمبراطورية السماء[4].

وهكذا، تفهم، أيها القارئ، كيف تعرفت بمدينة بطرسبوغ كلها.

سبق لي أن قلت إن القلق ظلّ ينهشني طوال ثلاثة أيام قبل الوصول إلى اكتشاف سببه.

كنت أشعر بالضيق، في الشارع (ذاك ليس هناك، وهذا ليس هنا، وإلى أين مضى الآخر؟) وحتى في بيتي لا أشعر بالراحة.

حاولت خلال يومين أن أفهم: ماذا ينقصني إذن في ركني؟ لماذا يشق علي كثيراً أن أبقى فيه؟ وأخذت أحدق مذهولاً في الجدران الخضراء، المبقعة بالسخام، وفي السقف، المزدان بأنسجة العنكبوت، التي نجحت ماتريونا في مساعدتها على النماء، واستعرضت كل أثاثي، وفحصت كل كرسي، متسائلاً: أليس هنا سبب البلاء؟ (لأنني أنزعج جداً، إذا نقل أي كرسي من المكان الذي وضع فيه بالأمس) وكنت أنظر عبر النافذة. . . ولكن دائماً عبثاً وسدى. . . لا وجود لأي عزاء!

وفكرت حتى في استدعاء ماتريونا لألومها على أنسجة العنكبوت، وعموماً، على نقص عنايتها، ولكنها اكتفت بالتحديق في بعينيها الذاهلتين وانصرفت، دون أن ترد علي بكلمة، وهكذا ظلّ نسيج العنكبوت معرشاً في مكانه بسلام وهناء.

ولم أخمن أخيراً ما جرى لي إلا في صباح هذا اليوم.

ولكن نعم! لقد هجروني جميعاً، وفروا إلى «الداتشات»[5]! عذراً على هذه الكلمة المبتذلة، لكنني مهموم بأشياء أخرى غير الأسلوب الرفيع. . . لأن بطرسبورغ كلها كانت إما ذهبت أو إنها على أهبة الذهاب إلى الضواحي، وبالتالي فإن كل رجل جليل القدر ورزين المظهر، عندما يستأجر حوذياً، كان يستحيل في نظري حالاً إلى ربِّ أسرة محترم، يقوم بالتزاماته الاعتيادية، ثم يمضي مع أهله للراحة في منزله الريفي، وما من عابر سبيل إلا ويتخذ الآن هيئة خاصة تماماً، ويكاد يقول لكل شخص يلتقيه: «إننا هنا، يا حضرات السادة، عابرون فقط، بعد ساعتين سنمضي إلى منزلنا الريفي».

وهناك انفتحت نافذة، في البداية طبلت فوقها أنامل ناعمة وبيضاء كالسكر، ثم برز رأس فتاة شقراء جميلة، أومأت لبائع متجول ينقل أصص أزهار، فتصورت فوراً أن هذه الأزهار لم تكن تقتنى للتمتع بالربيع أو لتعطير الجو الخانق في شقة المدينة، بل لأن الناس جميعاً سيذهبون قريباً ويحملون معهم هذه الأزهار إلى «الداتشات».

وفضلاً عن ذلك، أحرزت نجاحاً كبيراً في هذا النوع الجديد والخاص من الاكتشافات، بحيث كنت أستطيع أن أحدد، دون خطأ، وبنظرة واحدة، من يسكن في أية «داتشا». إن سكان جزر كاميني وأبتيكارسكي[6] أو أولئك الذين على طريق بيتيرهوف يتميزون ببراعة أساليبهم المدروسة وأناقة أزيائهم الصيفية، وروعة مركباتهم، التي يذهبون بها إلى المدينة.

وسكان بارغولوفو، وهناك، بعيداً، «يوحون» من أول

نظرة، بحصافتهم ورصانتهم، وزائر جزيرة كريستوفسكي يتميز بمظهره المرح الرزين.

هل كنت محظوظاً بمصادفة موكب طويل من عربات النقل، المستأجرة، التي يسير سائقوها بتكاسل، ممسكين بأعنة الخيول، إلى جانب مركبات مثقلة بجبال كاملة من كل أنواع الأثاث، موائد، مقاعد، أرائك تركية وغير تركية، وأمتعة منزلية أخرى، وفوق ذلك كله، غالباً ما كانت تجلس في قمة العربة طباخة نحيلة، تحرس رزق سيدها مثل قرة عينيها، هل كنت أنظر إلى القوارب المثقلة بشتى الأمتعة المنزلية وهي تجري فوق نهر النيفا أو فونتانكا، نحو النهر الأسود[7] أو إلى الجزر، كانت القوارب والعربات تتضاعف بالعشرات وتتكاثر بالمئات، أمام ناظري، فبدا لي أن كل شيء كان ينهض، أن كل شيء كان يتحرك، أن كل شيء كان ينتقل، في قوافل مثقلة، ومواكب طويلة، كلها كانت في طريقها إلى «الداتشات»، وبدا لي أن بطرسبورغ كانت تنذر بأن تتحول كلها إلى صحراء مهجورة، فانتهيت بالتالي إلى الإحساس بالخجل، والهوان، والحزن: فأنا، ليس لدي مكان أذهب إليه، حقاً، إلى أين أذهب في البادية، ولا سبب يدعوني للذهاب إليها. كنت مستعداً أن أسير مع أي موكب، أن أتبع كل رجل وقور يستأجر حوذياً، ولكن، لا أحد، لا، لا أحد استدعاني، كما لو كانوا نسوني جميعاً، كما لو كنت، حقاً، غريباً عنهم!

مشيت كثيراً وطويلاً، حتى إنني، كما هي عادتي، نسيت تماماً أين كنت، حين وجدتني فجأة في ضواحي المدينة. في

لحظة، أحسست بالفرح يغمرني، ولما مشيت خطوة خارج حدود المدينة، واجتزت الحقول المزروعة والمروج، لم أحس بالتعب، غير أنني شعرت في كياني كله أن عبئاً ثقيلاً قد انزاح عن روحي.

كان كل العابرين ينظرون إلي بكثير من الحفاوة، رغم أنهم لم يحيوني تقريباً، ولكنهم كانوا سعداء لسبب ما، وكانوا جميعاً، من أولهم إلى آخرهم، يدخنون السيجار. وأنا أيضاً، كنت سعيداً، مثلما لم يحدث لي أبداً. تماماً، كما لو ألفيتني فجأة في إيطاليا، وكم كان قوياً أثر الطبيعة علي، كمواطن شبه عليل، يكاد أن يختنق بين جدران المدينة.

ثمة شيء مؤثر لا يوصف في طبيعتنا البطرسبورغية، عندما، في مطلع الربيع، تبرز فجأة قوتها، وكل طاقاتها التي منحتها لها السماء، إذ تكتسي فراء، وتتحلى، وتتزين، وتتلون بالأزهار... كأنما دون إرادة مني تذكرني بتلك الفتاة، الذابلة، العليلة، التي ترنو إليها بحسرة تارة، وبنوع من الحب الحنون تارة أخرى، أو لا تسترعي انتباهك أحياناً، ولكنها، فجأة، وفي لحظة، ومن غير قصد، تغدو جميلة، وتبدو رائعة، على نحو لا يوصف، وأنت، مبهوراً، تتساءل، دون إرادتك: أية قوة أضاءت بمثل هذا الوهج هاتين المقلتين الحزينتين المتأملتين؟ من أين جاء هذا الدم الذي يروي هاتين الوجنتين الشاحبتين والغائرتين؟ من الذي غمر بالهوى هذه الملامح الرقيقة في هذا المحيا؟ لماذا هكذا ينهض ناهداً هذا الصدر؟ من الذي إذن بعث فجأة هذا العنفوان، هذه الحياة، هذا الجمال، في وجه هذه الفتاة المسكينة، من ذا الذي جعلها مشرقة بهذه البسمة، ومنتعشة بهذه الضحكة الفاتنة

والمتألقة. . .؟ وتنظر حولك، تبحث عن أحد، تخمن. . . لكن اللحظة تمضي ومنذ الغداة، ربما، ستجد مرة أخرى نفس النظرة المتأملة، والشاردة، ونفس الوجه الشاحب، ونفس الاستسلام والوجل في الحركات، وحتى تبكيت الضمير، وآثار حزن قاتل وضجر من أجل عشق عابر. . . وأنت، تأسف على أنِ جمالها الزائل قد ذوى، بسرعة، وبلا رجعة، وأنه كان خادعاً وساطعاً أمامك دون جدوى، وتأسف حتى على أن الوقت لم يسعفك لكي تحبها. . .

ومع ذلك كانت ليلتي أجمل من النهار!

وإليكم كيف حدث هذا:

دخلت إلى المدينة في ساعة متأخرة، كانت الساعة العاشرة حين اقتربت من منزلي. كان لا بد لي من المشي على طول رصيف قناة، حيث لا تعبر في هذه الساعة روح. صحيح أنني أسكن في أقصى جزء من المدينة. كنت أمشي وأغني، لأنني عندما أكون سعيداً، أردد دائماً كلاماً غير واضح في نفسي، مثل أي إنسان سعيد ليست له صداقات ولا علاقات، وفي لحظة الفرح هذه، لا يستطيع أن يتقاسمه مع أي أحد.

وحدثت لي مغامرة من أكثر المغامرات مفاجأة.

كانت منتحية جانباً، ومنحنية على حاجز القناة الحديدي، تقف امرأة، متكئة على الحاجز الحديدي، والظاهر أنها كانت تنظر إلى ماء القناة العكر بانتباه عميق.

كانت تعتمر قبعة صغيرة صفراء، وترتدي خماراً أسود. قلت في نفسي: «لا شك أنها فتاة سمراء». لم يبدُ عليها أنها

سمعت خطواتي، ولم تحرك ساكناً عندما مررت خلفها حابساً أنفاسي وقلبي يخفق بعنف.

قلت في نفسي: «غريب! لا بد أن تكون مستغرقة في التفكير العميق بشيء»، وتجمدت في مكاني فجأة كتمثال. وحسبت أني أسمع تنهدات مكبوحة. كلا! لم يخني ظني، كانت الفتاة تبكي، وتتنهد أيضاً وأيضاً، من لحظة لأخرى. يا إلهي! انقبض قلبي. كاد قلبي أن ينفطر. أنا خجول مع النساء، طبعاً، ولكن هنا، كانت اللحظة استثنائية...! رجعت إلى الخلف، خطوت نحوها، ومن دون شك، كنت سأنطق: «سيدتي!» لو لم أكن أعرف أن هذا النداء ذكر ألف مرة في جميع رواياتنا الروسية عن المجتمع الراقي. هذا هو الشيء الوحيد الذي أوقفني. ولكن بينما كنت أبحث عن كلمة، كانت الفتاة قد ثابت إلى رشدها. ونظرت حولها، و... وخفضت رأسها، وانسلت أمامي بمحاذاة رصيف القناة.

وتعقبتها حالاً، ولكنها تنبّهت، وغادرت الرصيف، وعبرت الشارع واتجهت نحو الرصيف الآخر. لم أجرؤ على عبور الشارع. كان قلبي يخفق مثل قلب عصفور وقع في الشرك. وفجأة، أغاثتني المصادفة.

على ذلك الرصيف الآخر، غير بعيد عن غريبتي، بدا على حين غرة رجل يرتدي «فْراكاً»(8)، وفي سنّ محترمة، ولكن مشيته لم تكن كذلك.

كان يسير مترنحاً، ومستنداً إلى الجدار، بحذر، بينما كانت الآنسة تجري كالسهم، بوجل وخجل، مثلما تجري على العموم

جميع الفتيات، اللواتي لا يردن أن يتطوع أحد لمرافقتهن إلى بيوتهن في الليل، وبطبيعة الحال، ما كان يمكن للرجل المتمايل أن يدركها لو لم يدفعه قدري إلى البحث عن وسائل مصطنعة.

فجأة، ودون أن ينبس ببنت شفة، انطلق الرجل على الفور، وأطلق ساقيه للريح، وجرى للحاق بغريبتي، التي كانت تعدو كالسهم، ولكن الرجل المترنح كان قد لحق بها، وأدركها، فأطلقت الفتاة صرخة، و... أبارك القدر الذي وضع في ذلك اليوم عصاً ممتازة ذات عقد في يدي اليمنى. وفي لمح البصر، كنت على الجانب الآخر من الرصيف، فأدرك الرجل المتطفل فوراً، ما كان يجري، وإذ رأى أداتي اللافتة للنظر، سكت وسمح لنا بالمضي قدماً، إلا أنه فقط قد احتج ضدي، عندما أصبحنا بعيدين جداً، بألفاظ محسوسة بما فيه الكفاية. ولكن كلماته لم تصل إلينا إلا بصعوبة.

قلت لغريبتي:

- «هاتي لي يدك ولن يجرؤ على لمسك قط».

ودون أن تنبس ببنت شفة، مدت إلي يدها، التي كانت لا تزال مرتعشة من الخوف والانفعال! أيها السيد الطفيلي! لكم باركتك في هذه اللحظة! كنت أختلس النظرات إليها: كانت لطيفة جداً - وسمراء، كما خمنت تماماً، كانت دمعات صغيرة لا تزال متلألئة في جفنيها السوداوين - ولم يهدأ بعد روعها الأخير، أو سوء حظها منذ قليل، لا أعلم شيئاً. ولكن ابتسامتها كانت مشرقة فعلاً على شفتيها. هي أيضاً، كانت تسترق النظرات إلي، مضرّجة خجلاً قليلا، وخافضة رأسها من جديد.

- «أترين، لماذا صددتني في تلك اللحظة! لو لم أكن هناك، ماذا كان سيقع؟

- ولكنني لم أكن أعرفك، كنت أظن أنك، أنت كذلك. . .

- ولكنك تعرفينني الآن إذن؟

- قليلاً. خذ، مثلاً، لماذا ترتعش؟».

أجبت، مبتهجاً بذكاء فتاتي، ولكن الذكاء لا يفسد شيئاً من الجمال:

- «آه! ها أنت خمنت على الفور! نعم، أدركت منذ الوهلة الأولى مع من تتعاملين. حقاً، أنا خجول مع النساء، أنا مضطرب، لا أنكر هذا، بقدر ما كنت حتى أنت مضطربة منذ لحظات، عندما أفزعك ذلك الرجل. . . أنا غارق في نوع من الخوف. . . هو مثل حلم، وحتى في الحلم، لم أتخيل أنني أستطيع أن أتكلم يوماً مع امرأة.

- كيف؟ حقاً؟

- نعم، إذا كانت يدي مرتعشة، فلأنها لم تصافح أبداً يداً صغيرة لطيفة مثل يدك. لقد فقدت عادة النساء، يعني لم تكن لدي هذه العادة في يوم من الأيام، أنا وحيد، تفهمين. . . لا أعرف حتى كيف يجب أن يكون الحديث معهن. وحتى الآن، لا أعرف - هل كان هراء كلامي معك؟ قولي لي بصراحة، أخبرك مسبقاً، أنا لست حقوداً. . .

- لا، لا، أبداً، بالعكس. وإذا كنت تلح على أن أكون صادقة، أقول لك إن النساء يعجبهن هذا الخجل، وإن شئت أن

تعرف عنه أكثر، إنه يروق لي أنا أيضاً، ولا تتوقع أن أطردك من هنا إلى بيتي».

قلت لها، طافحاً فرحاً:

- «سوف تجعلينني أكف حالاً عن أن أكون خجولاً، ثم الوداع لكل وسائلي!

- وسائلك! ماذا يعني؟ لأي سبب؟ هذا ما يفسد كل شيء!

- آسف، عذراً، هذه كلمة فلتت من لساني، ولكن كيف تريدين في مثل هذه اللحظة، ألا تكون هناك متعة....

- متعة الانجذاب والإعجاب، هذا ما تود أن تقول؟

- نعم، ولكن كوني كريمة، بحق السماء، أرجوك. انظري: من أنا! عمري الآن ستة وعشرون عاماً، ولم أرَ أحداً أبداً. كيف يمكنني أن أتكلم جيداً، بحكمة وحنكة؟ سيكون من الأفضل بالنسبة إليك أن يكون كل شيء مفتوحاً، في راحة اليد. لا أستطيع أن أسكت عندما يتكلم قلبي. آه ولكن لا يهم... هل تصدقينني؟ لا امرأة، أبداً، أبداً! ولا معرفة! أنا أحلم فقط بأنني ربما في نهاية المطاف سأنتهي إلى لقاء أحد ما. آه لو تعرفين كم من مرة كنت مغرماً على هذه الطريقة!

- ولكن كيف ذلك؟ وبمن إذن؟

- ولكن بلا أحد... بالمثل الأعلى، بتلك التي أراها في أحلامي. في أحلامي، خلقت روايات كاملة. آه، أنت لا تعرفينني! في الواقع، هذا أمر لا مفر منه، لقد التقيت فعلاً بامرأتين أو ثلاث نساء، ولكن من هنّ، هؤلاء النساء؟ إنهن دائماً مؤجِّرات بيوت... ولكن سأجعلك تضحكين إذا حكيت

لك أنني، عدة مرات، فكرت في أن أعقد حديثاً، هكذا، بكل بساطة، مع سيدة أرستقراطية، في الشارع، بالطبع، إذا كانت وحدها، أن أعقده، طبعاً، بطريقة خجولة، محترمة، عاطفية، أن أقول إنني أموت من الشعور بالوحدة، إنها لا ينبغي أن تصدني، إنني لا أملك وسيلة لمعرفة أية امرأة، أن أجعلها تدرك أن من واجب المرأة حتى أن لا تحتقر التوسل الخجول لرجل في مثل تعاستي. وإن كل ما أطلب في النهاية هو أن تقول لي، بكل بساطة، كلمتين، كأخت، بتعاطف، وأن لا ترفضني من الوهلة الأولى، وأن تصدقني بغير دليل، وأن تصغي إلى ما أقول لها، وأن تسخر مني، إذا كان ذلك يحلو لها، وأن تدع لي أملاً وأن تقول لي كلمتين، كلمتين فقط، حتى ولو كنا سنفترق دون أن نلتقي أبداً! ولكنك تضحكين... وعلى كل حال، من أجل هذا أنا أكلمك...

- لا تكن غاضباً. أنا أضحك، لأنك أنت عدو نفسك، لأنك لو حاولت، لنجحت ربما، نعم، حتى إن كان ذلك في الشارع، كلما كان الأمر أبسط، كان أفضل... ليست هناك امرأة طيبة، على أن لا تكون فقط غبية، وألا تكون بالأخص غاضبة في تلك اللحظة، تجرؤ على أن ترسلك دون هاتين الكلمتين اللتين تلتمسهما منها متوسلاً بمثل هذا التواضع... ولكن، كلا، ماذا أقول! من المؤكد أنها سوف تعتبرك مجنوناً. وأنا الآن لا أحكم إلا بناء على وجهة نظري. ولكنني أنا نفسي أعلم جيداً كيف يعيش الناس!».

صحت قائلاً لها:

- «آه! شكراً لك! لا تعلمين ما فعلت للتو من أجلي!

- طيب! طيب! ولكن، قل لي، لماذا عرفت أنني كنت المرأة التي مع من. . . على كل حال، تعتقد أنها جديرة. . . بالاهتمام، والصداقة، باختصار، وليست مؤجَّرة، كما تسميهن. لماذا قررت الحديث معي؟

- لماذا؟ لماذا؟ ولكنك كنت وحدك، والسيد الآخر كان جريئاً جداً، وكان الوقت ليلاً، ألا ترين أنه كان من الواجب علي؟

- لا، لا، حتى من قبل، هناك، من الجانب الآخر. كان في نيتك فعلاً أن تقترب مني وتخاطبني، أليس كذلك؟

- هناك؟ من الجانب الآخر؟ ولكنني، حقاً، لا أدري كيف أجيبك، أخشى. . . أتدرين، كنت اليوم سعيداً، كنت أمشي، وأنا أغني، خرجت إلى ضواحي المدينة، لم أعش يوماً لحظات سعيدة مثل هذه. . . وإذا بك تظهرين. . . كان لدي هذا الانطباع، ربما. . . على كل حال، سامحيني إذا أنا ذكرتك بذلك، كان لدي هذا الانطباع، بأنك كنت تبكين، وأنا. . لم أحتمل سماع ذلك. . .

فانقبض قلبي. . . يا إلهي! هيا، أما كان يحق لي أن أقاسمك حزنك؟ أكانت إذن خطيئة أن أشعر نحوك بالعطف الأخوي؟ سامحيني، على قول «العطف». . . هيا، وأخيراً، أكان في استطاعتي أن أسيء إليك، حين خطرت على بالي، رغماً عني، فكرة الاقتراب منك؟».

قالت الفتاة، وهي تخفض عينيها وتشد على يدي:

- «دعك من هذا، يكفي، لا تزد شيئاً. . . أنا المذنبة بالحديث عن ذلك. . .

لكنني سعيدة لأنني لم أخطئ في حقك. . . لكن، ها أنا الآن وصلت إلى بيتي، سأنعطف من هنا، في هذا الزُقاق، على بعد خطوتين. . . وداعاً، أشكرك. . .

- كيف؟ أهذا ممكن، أيمكن ألا نلتقي مرة أخرى؟».

أجابت الفتاة مبتسمة:

- «أرأيت، في البداية، لم تكن تريد إلا كلمتين، والآن. . . ولكن، مع ذلك، لا أقول لك شيئاً. . . ربما، نلتقي. . .».

قلت:

- «سأعود إلى هنا غداً، آه! عفواً، ها أنا بدأت أطلب الآن.

- نعم، أنت نافد الصبر، بدأت تأمر تقريباً. . .».

قاطعتها صائحاً:

- «اسمعي قليلاً، استمعي إلي! اسمحي لي، إذا قلت لك أيضاً شيئاً. . . هذا ما هنالك: لا أستطيع ألا أعود إلى هنا غداً. أنا حالم، ليس لدي من واقع الحياة إلا القليل جداً، بحيث إن مثل هذه اللحظات، كالتي أعيشها الآن، أعتبرها نادرة جداً، حتى إنني لا أستطيع ألا أستعيدها في أحلامي. سأحلم بك، طوال الليل، خلال الأسبوع كله، وعلى مدار السنة.

سأعود إلى هنا، دون أدنى شك، أجل، إلى هنا بالضبط،

إلى هذا المكان بالذات، في هذه الساعة نفسها، وسأكون سعيداً بتذكر ما جرى. هذا المكان غالٍ عندي بالفعل.

ولدي أيضاً مكانان أو ثلاثة أمكنة مثله في بطرسبورغ.

ذات مرة، انخرطت في البكاء بسبب ذكرى، مثلك. . . من يدري، ربما، أنت أيضاً، منذ عشر دقائق، كنت تبكين بسبب ذكرى؟ ولكن، اسمحي لي، نسيت نفسي مرة أخرى، ربما، يوماً ما، كنت سعيدة بوجه خاص، هنا. . .».

قالت الفتاة:

- «حسناً، أظن أنني سوف آتي غداً، أنا أيضاً، في الساعة العاشرة. أرى أنني لا يمكن لي الآن أن أمنعك من ذلك. . . الحقيقة أنني يجب أن أكون هنا، فلا تتصور أنني أضرب لك موعداً. أحذرك، أنا في حاجة إلى أن أكون هنا، من أجل نفسي. ولكن هذا، هيا، أقوله لك بكل صراحة، لا يهم إذا جئت أنت أيضاً، أولاً، يمكن أن تكون هنالك أيضاً بعض الحوادث المزعجة، مثلما وقع منذ قليل، ولكن لندع ذلك جانباً. . . باختصار، أودُّ ببساطة أن أراك. . . لأقول لك كلمتين. فقط، أترى، لا تحكم علي في هذه اللحظة، لا تعتقد أنني أضرب مواعيد بكل سهولة. . . كان في ودّي أن أحدد لك موعداً، لو. . . ولكن ليبقَ هذا سري! فقط، هناك مقدماً، شرط. . .

- شرط؟ تكلمي، قوليه، قولي كل شيء مقدماً، أنا موافق على كل شيء، ومستعد لكل شيء!».

وأردفت متحمساً:

- «إنني أجيب عن نفسي، سأكون مطيعاً، محترماً. . . أنت تعرفينني. . .».

قالت الفتاة باسمة:

- «بالضبط لأنني أعرفك، أدعوك غداً. إنني أعرفك تماماً، ولكن، حذار، تعال بشرط: أولاً وقبل كل شيء (فقط، أرجوك، افعل ما أطلبه منك - أترى، أنا صريحة) لا تقع في حبي. . . هذا مستحيل، أؤكد لك. أما بالنسبة إلى الصداقة، فأنا جاهزة تماماً، هذه يدي. . . ولكن الوقوع في الحب - ممنوع، هذا أمر!».

صحت ممسكاً بيدها الصغيرة الجميلة:

- «أحلف لك على ذلك.

- كفى، لا تحلف: إنني أعرف أنك قادر على أن تشتعل مثل بارود المدفع. لا تحكم علي إذا أنا تكلمت هكذا. ليتك تعلم. . . أنا أيضاً، ليس لدي أحد أبادله كلمة، أسأله نصيحة. طبعاً، لا يجب البحث عن النصائح في الشارع، لكنك أنت استثناء. إنني أعرفك كما لو كنا صديقين منذ عشرين سنة. . . لن تخونني، أليس كذلك؟

- سترين. . . فقط، لا أدري إذا كنت سأستطيع البقاء على قيد الحياة أربعاً وعشرين ساعة.

- نم جيداً. . . ليلة سعيدة - ولا تنسَ: إنني وضعت ثقتي فيك. ولكنك صحت قبل قليل: هل ينبغي إذن أن نحلل كل شعور، وحتى العطف الأخوي! أتدري، لقد قيل ذلك جيداً بحيث خطرت في بالي حالاً فكرة أن أضع ثقتي فيك. . .

- بالله عليك، ولكن في أي شيء؟ وكيف ذلك؟

- إلى الغد! ليبقَ ذلك في هذه اللحظة سراً. هذا أفضل لك: على الأقل من بعيد، سيكون هذا شبيهاً برواية. ربما سأقوله لك منذ الغد، وربما لا... يجب أن أكلمك من قبل، وأن نتعارف أكثر...

- آه، نعم، منذ الغد، سوف أحكي لك عني كل شيء! ولكن، ما هذا إذن؟ يبدو كأني أعيش معجزة... أين أنا، يا إلهي؟ ولكن، أخبريني، هل صحيح أنك في هذه اللحظة غير سعيدة لكونك غير غاضبة كما كان يمكن أن تفعل أخرى، ولكونك لم تطرديني منذ البداية؟ دقيقتان، وجعلتني سعيداً مدى الحياة. نعم، سعيداً! ومن يدري، ربما صالحتني مع نفسي، وبددت شكوكي... ربما أنا الآن أعيش إحدى هاتين الدقيقتين... وأخيراً، سأقص عليك غداً كل شيء، ستعلمين كل شيء، نعم، كل شيء...

- طيب، موافقة، أنت الذي سوف تبدأ...

- موافق

- إلى اللقاء!

- إلى اللقاء!».

وافترقنا. سريت الليل كله: لم أستطع أن أقرر الرجوع إلى البيت، كنت في غاية السعادة... «إلى الغد!».

الليلة الثانية

قالت لي باسمة، بينما كانت تشد على يديّ معاً:

- «وإذن، ها أنت ذا باقٍ على قيد الحياة!

- أنا هنا منذ ساعتين، لا تعرفين كيف قضيت هذا اليوم!

- أعرف، أعرف... ولكن، لنعد إلى الواقع. أتدري لماذا أتيت؟ ليس لأقول هراء، مثل أمس. هو ذا: ينبغي علينا أن نكون أكثر حكمة. بالأمس، فكرت طويلاً جداً في كل ذلك.

- في ماذا، في ماذا علينا أن نكون أكثر حكمة؟ من جانبي، أنا مستعد، ولكن، حقاً، لم يحدث لي أبداً شيء أكثر حكمة، كما الآن.

- حقاً؟ أولاً، أرجوك، لا تضغط على يدي بشدة، ثم، أعلن لك أنني فكرت كثيراً في شأنك، اليوم.

- حسناً، وإلى ماذا انتهيت إذن؟

- إلى ماذا انتهيت؟ إلى أنه يجب البدء من الصفر، لأنني، ختاماً لكل شيء، قررت اليوم أنك ما زلت مجهولاً لدي تماماً، لأنني تصرفت أمس كطفلة، كفتاة صغيرة، وينجم عن ذلك بالطبع أن قلبي الطيب هو المذنب في كل شيء. يعني أنني قمت

بمدح نفسي، كما هي الحال دوماً، في نهاية المطاف، خلال اختبار للضمير. وإذن، لتصحيح خطئي، قررت أن أعرفك في أصغر التفاصيل. ولكن بما أنني ليس لدي أحد أسأله عنك لأعرفك، فأنت الذي يجب أن تحكي لي كل شيء، وأن تفضي إلي بكل ما في أعماقك. وإذن، أي نوع من الرجال أنت؟ بسرعة، هيا ابدأ إذن، اروِ لي قصتك!».

صرخت فزعاً:

- «قصتي! قصتي! ولكن من قال لك إن لي قصة؟ ليست لدي أية قصة. . .».

قاطعتني مبتسمة:

- «وإذن، كيف عشت إذا لم تكن لك قصة؟

- إطلاقاً دون أدنى قصة! هكذا، عشت، كما يقال عندنا، بنفسي، يعني، وحدي، وحدي على الإطلاق، وحدي تماماً. . . أتفهمين ما معنى: وحدي؟

- كيف هذا: وحدك؟ يعني أنك لا ترى أحداً أبداً.

- آه! لا! فيما يتعلق برؤية الناس، فأنا أراهم، ولكنني وحيد مع ذلك.

- وإذن، لا تتكلم مع أحد؟

- بالمعنى الدقيق للكلمة، لا أحد.

- ولكن من أنت إذن؟ اشرح! بل انتظر، دعني أخمن: بالتأكيد لديك جدة، مثلي. إنها ضريرة، ومنذ مدة طويلة لم تتركني أذهب إلى أي مكان، إلى حدّ أني فقدت عادة الكلام. وبعد ذلك، عندما ارتكبت حماقة، منذ عامين، رأت أنها لا

يمكن أن تمنعني من الخروج، وإذن، دعتني إليها، وربطت فستاني مع فستانها، بدبوس، وهكذا بقينا، طوال أيام، هي، الضريرة، تنسج جورباً، وأنا، علي أن أظل إلى جانبها، لأخيط، أو أقرأ لها - إنها عادة غريبة جداً، من سنتين وأنا مربوطة معها بدبوس. . .

- آه، يا إلهي، يا للمصيبة! ولكن، لا، ليست لي جدة مثل هذه.

- وإذا لم تكن لك مثلها، لماذا إذن تستطيع البقاء دائماً في البيت؟

- اسمعي، تريدين أن تعرفي من أنا؟

- حسناً، نعم، نعم!

- بالمعنى الدقيق للكلمة!

- بأدق معاني الكلمة!

- وإذن، أنا نموذج».

صاحت الفتاة وهي تضحك عالياً كأنها لم تضحك منذ عام:

- «نموذج، نموذج؟ كيف، نموذج؟ من المستحيل الشعور معك بالملل! انظر: هذا مَقعد، فلنجلس عليه! لا يمر من هنا أحد، ولا أحد يستطيع أن يسمعنا، هيا، ابدأ بسرعة سرد قصتك! لأنك لن تقنعني بالعكس، لديك قصة، إلا أنك تحاول أن تخفيها عني. أولاً، ما معنى نموذج؟».

أجبتها وأنا أنفجر في أعقابها بضحكة طفولية:

- «نموذج؟ النموذج، شخص غريب الأطوار، إنسان مضحك! إنه نوع من الطبع. اسمعي: هل تعرفين ما معنى حالم؟

- حالم؟ ولكن نعم بالطبع أعرفه! وأنا نفسي حالمة! أحياناً، عندما أبقى إلى جانب جدتي، يعلم الله فيم أفكر. في بعض الأحيان، أنت تعرف، نبدأ بالحلم، نشرع في التفكير، وهكذا إذن، رأيتني، مثلاً، متزوجة بأمير صيني... ولكنه حقاً أمر جيد أن نحلم في بعض الأحيان!».

وأضافت الفتاة بلهجة جادة تماماً:

- «في الواقع، لا... من يدري؟ ولا سيما إذا كان لنا، حتى عدا ذلك، ما نفكر فيه.

- ممتاز! ما دمت تزوجت بإمبراطور الصين، فإنك سوف تفهمينني بشكل رائع. وإذن، هيا، استمعي إلي... ولكن عفوك: ما زلت لا أعرف اسمك!

- وأخيراً، وجدت الوقت لتتذكره!

- آه! يا إلهي! ولكنني لم أفكر حتى في ذلك، كنت على خير ما يرام...

- اسمي ناستينكا[9].

- ناستينكا! وفقط؟

- فقط. هل هو قليل جداً لديك؟ أيها الشره!

- قليل جداً؟ كلا، إنه كثير، كثير، بالعكس، كثير جداً، ناستينكا، أنت فتاة طيبة، ليتني استطعت، منذ اللحظة الأولى، أن أناديك ناستينكا!

- أليس كذلك؟ وإذن؟

- حسناً، هيا، اسمعي إذن، يا ناستينكا، إنها قصة مضحكة جداً».

وجلست إلى جانبها، متخذاً وضع متحذلق خطير وبدأت، كما لو كنت أقرأ من كتاب:

- «إن هناك، يا ناستينكا، إذا لم تكوني تعرفين، هناك في بطرسبورغ أركان غريبة جداً. هذه الأماكن لا تخترقها، فيما يبدو، نفس الشمس التي تشرق على جميع السكان الآخرين في بطرسبورغ: بل تخترقها، شمس أخرى عجيبة، شمس جديدة، خلقت حصراً لهذه الأركان، وهي تشع بضوء آخر، خاص تماماً. في هذه الزوايا، يا عزيزتي ناستينكا، توجد فيما يبدو حياة أخرى، مختلفة كلياً، عن الحياة التي تغلي من حولنا، حياة من تلك الحيوات التي لا يمكن أن نراها إلا في مملكة الخرافة، ولكن ليس عندنا، في عصرنا الذي كم هو جاد جداً.

إن هذه الحياة، خليط من شيء عجائبي بحت، ومثالي عنيف، مع شيء آخر - للأسف، يا عزيزتي ناستينكا! - كالح، وركيك، وعادي، حتى لا نقول: مبتذل بصورة غير محتملة. لا تصدق...

- آه، يا إلهي! يا لها من مقدمة! ماذا إذن سأسمع أيضاً؟

- ما ستسمعين، يا ناستينكا (أظن أنني لن أتعب أبداً من أن أناديك ناستينكا)، هو أن في هذه الأركان، يعيش أناس غريبون: هم الحالمون. والحالم - إن كنت في حاجة إلى تعريفه الدقيق - ليس إنساناً، ولكنه، هل تعلمين؟ مخلوق محايد.

إنه يفضل الإقامة في الزوايا التي لا يمكن الوصول إليها،

كما لو كان يحاول الاختباء حتى من ضوء النهار، وحالما يدخل إلى بيته، يلتصق بركنه كالحلزون، أو على الأقل يشبه كثيراً، في هذا الصدد، هذا الحيوان الغريب الذي هو في الآن ذاته حيوان ومنزل، والذي يسمى السلحفاة.

ما قولك في ذلك، لماذا يحب كثيراً جدرانه الأربعة، المدهونة دائماً باللون الأخضر، والملوثة بالسخام ودخان التبغ بصورة غير لائقة؟ لماذا هذا الرجل المضحك، عندما يأتي لزيارته أحد من معارفه النادرين (لأنه ينتهي دائماً بترك الفراغ حوله)، لماذا يستقبله هذا الرجل المضحك بكثير من الإحراج والانزعاج، بوجه شديد الارتباك والاضطراب، كأنه ارتكب جريمة، هناك، بين جدرانه الأربعة، كأنه كان يقوم بصنع عملة مزيفة، أو نظم أبيات من الشعر ليرسلها إلى مجلة مع رسالة مجهولة توضّح أن الشاعر الحقيقي مات وأن صديقه يعتبر من واجبه المقدس أن ينشر أعماله؟ لماذا، قولي لي، يا ناستينكا، لماذا هذان المتحاوران يفشلان في عقد محادثة؟ لماذا لا تخرج لا ضحكة ولا كلمة طيبة من فم هذا الصديق المفتون الذي يدخل فجأة، ولكنه، في ظروف أخرى، عاشق كبير للضحك والكلمات الطيبة والأحاديث عن الجنس اللطيف وغيرها من الموضوعات الممتعة؟

لماذا إذن، في آخر الأمر، هذا الصديق، الحديث العهد بمعرفته، منذ زيارته الأولى - لأنه، في مثل هذه الحالة، لن تكون له زيارة ثانية، ولن يعود أبداً - لماذا هذا الزائر نفسه يحس بالاضطراب والانزعاج ويتجمد كلية ويفقد كامل حسه

السليم (لو بقي له شيء منه) حين يرى شحوب وجه مضيفه، الذي كان بدوره الآن مرتبكاً تماماً وفاقداً آخر ذرة من تفكيره السليم، رغم جهوده الجبَّارة، لكن عبثاً لتزيين الحوار وتحسين الحديث، وإظهار معرفته بالعالم، والناس، والكلام أيضاً عن الجنس اللطيف، وإرضاء هذا الرجل المسكين، على الأقل بمثل هذا الاستسلام له، بعد أن حل ضيفاً عليه بالخطأ؟ لماذا، أخيراً، يتناول هذا الضيف قبعته فجأة وينصرف بسرعة، متذكراً على حين غرة قضية مهمة، قد اختلقها فوراً، وبطريقة أو بأخرى، يحرر يده من العناق الحار لمضيفه الذي يريد بكل الوسائل إظهار أسفه وتفادي الكارثة؟ لماذا ينفجر الصديق المنصرف بالضحك حالما يجتاز عتبة الباب قاطعاً على نفسه وعداً بأن لا يعود أبداً إلى منزل هذا النموذج الغريب الأطوار - على الرغم من أن هذا الغريب الأطوار، في حقيقة الأمر، فتى ممتاز جداً - وفي الوقت نفسه لا يستطيع أبداً أن يحرم مخيلته من نزوة صغيرة: وأن يقارن، ولو من بعيد، وجه محاوره منذ قليل طوال المقابلة، مع مظهر هذه القطة الصغيرة البائسة، المدعوكة، والمذعورة، والمعذبة على كل حال من طرف الأطفال الذين سجنوها غدراً، وبعد أن اضطربت كثيراً، هربت منهم أخيراً تحت المائدة، في الظلام، وهناك أخذت على مهل، خلال ساعة، تنتفش، وتمسح، بقائمتيها، خطمها الصغير المهان، وبعدئذ نظرت طويلاً، بعين معادية، إلى الطبيعة والحياة، وحتى إلى فضلات طعام السادة التي احتفظت بها لها طباخة رحيمة؟».

قاطعتني ناستينكا، التي كانت طوال الوقت تصغي إلي بدهشة، فاغرة فاها الصغير، وفاتحة عينيها الواسعتين:

- «انتظر قليلاً، اسمع: لا أدري بتاتاً لماذا حدث كل ذلك ولماذا تلقي علي أسئلة مضحكة جداً. ولكن ما أعرفه جيداً، هو أن كل هذه المغامرات، إنما وقعت لك أنت، كلمة كلمة».

أجبتها بلهجة جادة جداً:

- «دون أدنى شك.

- وإذن، إذا كان دون أدنى شك، هيا تابع، لأنني متلهفة إلى معرفة كيف سينتهي هذا.

- تريدين أن تعرفي، يا ناستينكا، ماذا كان يفعل في ركنه بطلنا أو، بالأحرى، ما فعلتُ، ما دام بطل القضية كلها هو أنا نفسي، بشخصي المتواضع. تريدين أن تعرفي لماذا كنت شديد الاضطراب والذهول، طوال النهار، بعد الزيارة غير المنتظرة لصديقي؟ تحبين أن تعرفي لماذا انتفضت كثيراً، لماذا كنت محمراً إلى خدّ كبير، عندما انفتح باب غرفتي، ولماذا لم أتمكن من استقبال ضيفي، وخبرت موتاً مخزياً تحت وطأة استضافتي الخاصة؟».

أجابت ناستينكا:

- «حسناً، نعم، نعم! هنا، جوهر المسألة. اسمع: أنت تحكي بشكل رائع، ولكن ألا يمكنك أن تحكي بشكل أقل روعة؟ لأنك تتكلم كأنك تقرأ من كتاب».

أجبت بصوت جدي وصارم، وأنا بالكاد أتمالك نفسي عن الضحك:

- «ناستينكا! عزيزتي ناستينكا، أنا أعرف أنني أحكي بشكل جيد، ولكن عذراً، لا أعرف أن أحكي بشكل آخر. في هذه اللحظة، يا عزيزتي ناستينكا، في هذه اللحظة أشبه روح الملك سليمان، التي حُبست ألف عام في قارورة تحت سبعة أختام، والتي حُررت أخيراً من جميع هذه الأختام السبعة. وفي هذه اللحظة، يا عزيزتي ناستينكا، لما التقينا من جديد بعد فراق طويل، لأنني كنت أعرفك منذ زمن بعيد. لأنني، يا ناستينكا، كنت أبحث عن أحد منذ مدة طويلة، وذلك يعني أنني كنت أبحث عنك، أنت، وكان مكتوباً علينا أن نرى بعضنا الآن. وفي هذه اللحظة، انفتحت في رأسي آلاف الصمامات، وعلي أن أدع الكلمات تتدفق سيولاً، وإلا فإنني سأختنق. وهكذا، أرجوك إذن أن لا تقاطعيني، يا ناستينكا، ولكن أن تنصتي إلي، وأن تكوني مستمعة منقادة وطيعة. وإلا، فإنني سأصمت.

- كلا، لا، لا! على الإطلاق! تكلم! من الآن، لن أنطق بكلمة!

- أتابع. ناستينكا، يا صديقتي، هناك ساعة، أحبها قبل كل شيء. إنها الساعة المعلومة جيداً، حيث تنتهي تقريباً كل الأعمال، والوظائف، والالتزامات، ويسرع جميع الناس إلى منازلهم لتناول طعام الغداء، والقيام بقيلولة قصيرة. و، أثناء الطريق، يبتكرون مواضيع أخرى مسلية، متعلقة بالمساء والليل وكل الوقت المتبقي لهم حراً. في هذه الساعة، فإن بطلنا، كالآخرين - وهنا اسمحي لي، يا ناستينكا، أن أسرد قصتي بضمير الغائب، لأنني أشعر بالخجل الشديد من الحديث عنها

بضمير المتكلم - وهكذا إذن، في هذه الساعة، فإن بطلنا الذي لا بد له هو أيضاً من القيام ببعض المهام، يمشي وراء الآخرين.

ولكن شعوراً غريباً بالرضى والانشراح يعلو محياه الشاحب، كالمدعوك قليلاً.

إنه لا ينظر من غير مبالاة إلى غروب الشمس الذي ينطفئ ببطء في السماء الباردة لبطرسبورغ.

وعندما أقول إنه ينظر، فأنا أكذب: إنه لا ينظر إليه، إنما يتأمله، كأنه كان غير مبالٍ به، كأنه كان متعباً، أو مشغولاً في الوقت نفسه بشيء آخر، أكثر إثارة للاهتمام، حتى أنه يمكنه في بعض اللحظات فقط، ولا إرادياً تقريباً، أن يخصص وقتاً لكل ما يحيط به.

إنه مسرور لأنه تخلص حتى الغد من بعض الأعمال التي تزعجه، وهو فرح كتلميذ سمح له بمغادرة مقعد مدرسته لينصرف إلى ألعابه ومزحه المفضلة.

انظري إليه جانبياً، يا ناستينكا: سترين حالاً أن هذا الشعور بالفرح كان مفعوله ناجحاً على أعصابه الضعيفة وخياله المثار بطريقة مؤلمة.

انظري، ها هو ذا مستغرق في التأمل... فيم يفكر، بنظرك؟ أتظنين، في طعام غدائه؟ في أمسية اليوم؟ إلى ماذا ينظر هكذا؟ إلى هذا السيد الرزين المظهر الذي حيًّا للتو على نحو جذاب سيدة مرت أمامه، منذ لحظة، في عربتها الباهرة الجامحة الخيول؟ لا، يا ناستينكا، ماذا سيفعل الآن بكل هذه التفاهات والترهات؟

إنه الآن غني بحياته الخاصة، وقد أصبح فجأة غنياً بشكل غريب، وشعاع وداع الشمس التي تنطفئ لم يتلألأ عبثاً أمامه بفرح، باعثاً من قلبه الدافئ سرباً من الانطباعات.

الآن، بالكاد يلاحظ هذا الطريق الذي كان يمكن لأصغر التفاصيل فيه أن يدهشه من قبل.

إن «إلهة الخيال» (إذا كنت قرأت جوكوفسكي[10]، يا عزيزتي ناستينكا) قد حاكت بيدها العجيبة نسيجه الذهبي وبسطت أمامه زخارف حياة مدهشة، خارقة. و، من يدري، ربما، بيدها العجيبة، نقلته إلى السماء السابعة البلورية، من هذا الرصيف الصواني الرائع، الراجع عبره إلى بيته. حاولي أن توقفيه الآن، اسأليه فجأة: أين هو الآن، أي طريق سلك؟ لن يتذكر شيئاً، دون شك، لا عن طريقه ولا المكان الذي هو فيه، و، محمراً خجلاً من الغيظ، سوف يحكي ما لا أدري من الكذب لحفظ ماء الوجه. لهذا السبب ارتجفَ بشدة، بل صرخ تقريباً، ونظر حوله، بفزع، عندما استوقفته سيدة عجوز محترمة، بأدب، في منتصف الرصيف، وسألته عن الطريق الذي تاهت عنه. فقطب حاجبيه من الحنق، وتابع سيره، وهو لا يكاد يلاحظ أن أكثر من عابر أخذ يبتسم لما رآه، والتفت حوله وإذا به يرى الفتاة الصغيرة، التي فسحت له طريق المرور، مرتاعة، تنفجر ضاحكة فجأة، وهي تلاحظ، جاحظة العينين، ابتسامته العريضة التأملية وإيماءات ذراعيه. ولكنه «الخيال» نفسه دائماً هو الذي حمل الآن السيدة العجوز، والمارة الفضوليين، والفتاة الصغيرة الضاحكة، والرجال الذين يعدّون وجباتهم المسائية هنا على متن

قواربهم التي تسد ضفة نهر فونتانكا (لنفترض أن بطلنا كان يمرّ في هذه اللحظة بالذات بمحاذاة فونتانكا) التي تضم بدهاء كل شيء والجميع في قماشتها، كالذباب في شُعّ عنكبوت، ومع هذا المكسب الجديد، كان النموذج الغريب الأطوار قد عاد أخيراً إلى بيته، وجحره السعيد، وجلس حول مائدته، وتناول طعام العشاء ولم يثب إلى رشده إلا حين كانت ماتريونا المفكرة والحزينة دائماً، والساهرة على خدمته، قد قامت برفع غطاء المائدة، ثم جاءت إليه بغليونه، وعندئذ ثاب إلى رشده، وتذكر بذهول أنه انتهى تماماً من تناول طعام العشاء وأنه لن يستطيع أن يقول كيف تمّ ذلك. ثم، خيَّم الليل في غرفته، وقلبه فارغ وحزين، ومملكة كاملة من الأحلام تنهار من حوله، تنهار من دون أثر، بلا ضجيج ولا ضوضاء، مرت كصورة حلم، وهو لا يتذكر أنه رأى هذه الأحلام.

ولكن نوعاً من الإحساس الغامض، الذي أدّى إلى أنين واضطراب صدره، نوعاً من الرغبة الجديدة يجذب، يدغدغ، يثير مخيلته ويستدعي على نحو غير محسوس سرباً كاملاً من الأشباح الجديدة.

في الغرفة الصغيرة يرين السكون، والشعور بالوحدة والكسل يداعب المخيلة، فتلتهب هذه الأخيرة، شيئاً فشيئاً، وتبدأ في الغليان، رويداً رويداً، كالماء في إبريق العجوز ماتريونا، التي كانت بجانبه، في المطبخ، منهمكة، دون إزعاج، في إعداد القهوة، بيد ربة بيت ماهرة.

وها هي المخيلة تطلق ومضات صغيرة، ها هو الكتاب،

الذي تناوله بلا هدف، ومصادفة، يقع من يدي صاحبي الحالم، الذي لم يصل حتى إلى الصفحة الثالثة. وها هي مخيلته مزينة، متوترة، و، من جديد، فجأة، عالم جديد، حياة جديدة، وجذابة، تتلألأ أمامه في آفاقه المشرقة. حلم جديد: هي سعادة جديدة! جرعة جديدة من سم مصفى، لذيذ! آه، ماذا عساه يفعل بحياتنا الحقيقية؟ في نظرته الآسرة الفاتنة، أنا وأنت، يا ناستينكا، نعيش حياة شديدة الخمول والبطء والشحوب، بالنسبة إليه، نحن ساخطون على مصيرنا، مشمئزون من وجودنا! وفي الحقيقة، هذا صحيح، انظري، هذا بالتأكيد، كما في النظرة الأولى، كل شيء بيننا بارد، كالح، كأنه مكفهر. . . «يا للتعساء المساكين!» - هكذا اعتقد صاحبي الحالم. لكن لا عجب في أن يعتقد ذلك! انظري إلى هذه الأشباح الخرافية التي تتشكل أمامه، مدهشة، غريبة، بكثرة ولا حدّ لها، في لوحة حية رائعة، حيث كان يوجد في المقدمة، وبطبيعة الحال، في دور البطل، طبعاً، صاحبنا الحالم نفسه، بكامل شخصيته القيمة. انظري: أية مغامرات متنوعة، أي سرب لامتناهٍ من الأحلام المثارة! لعلك تسألين بماذا يحلم؟ ما جدوى السؤال عن ذلك؟ إنه يحلم بكل شيء. . . بدور شاعر، غير معروف في البداية، ثم متوج بإكليل المجد أخيراً، بصداقته مع هوفمان[11]، بسان بارتيليمي[12]، بديان فيرنون[13]، بالدور البطولي لإيفان الرهيب عند الاستيلاء على قازان، بكلارا موفراي، بإيفي دينز، بجان هوس[14] في وجه مجمع الأساقفة، بتمرد الموتى في روبير الشيطان (هل تتذكرين الموسيقى؟ إنها حقاً تفوح برائحة المقبرة!)، بمينّا

وبريندا، بمعركة بيريزينا[15]، بقراءة قصيدة عند البارونة ف. . . ا د. . . ا[16]، بدانتون[17]، بكليوباترا Ei suoi amanti (وعاشقها - بالإيطالية -)، بالمنزل الصغير في كولومنا[18]، بركنه الصغير و، إلى جانبه، مخلوقة محبوبة تصغي إليه ذات مساء خريفي، فاغرة فاها الصغير، وفاتحة عينيها الجميلتين، كما أنت تستمعين إلي، أنت، في هذه اللحظة، يا ملاكي الصغير[19]. . .

لا، يا ناستينكا، ماذا يمكن أن تفعل له، ماذا يمكن أن تصنع لهذا الكسول الشهواني، هذه الحياة، التي نصبو إليها بقوة، أنا وأنت؟ إنه يراها حياة فقيرة، تافهة، ولا تظني أنه هو أيضاً، حين ستحين الساعة الحزينة يوماً، قد يعطي، لقاء يوم وحيد من هذه الحياة الفقيرة، كل أيامه الغريبة، ولن يعطيها كذلك من أجل الفرح، أو في سبيل السعادة، بل إنه لن يريد حتى أن يختار في هذه اللحظة من الحزن والندم والألم.

ولكن هذه اللحظة، هذه اللحظة المرعبة، لم تحن بعد، وهو، لا يرغب في أي شيء، لأنه فوق الرغبات، لأن لديه كل شيء، لأنه شبعان، لأنه هو نفسه فنان حياته، ويخلقها بنفسه، في كل لحظة، وفق إرادته الجديدة.

وبالفعل، يتخلق هذا العالم الخيالي الأسطوري، بكل سهولة وبشكل طبيعي جداً!

كما لو أن كل ذلك لم يكن وهماً! حقاً، أنا على استعداد للاعتقاد، أحياناً، أن كل هذه الحياة ليست هَيَجان حواس ولا سراباً، ولا خداع خيال، ولكنها شيء حقيقي، فعلي، موجود وقائم! لماذا إذن، قولي لي، يا ناستينكا، لماذا في مثل هذه

اللحظات، ينقبض القلب؟ لماذا، بأي نوع من السحر، بأية إرادة مجهولة، يتسارع النبض، تنسكب الدموع من محاجر صاحبنا الحالم، تلتهب وجنتاه، الشاحبتان، المخضلتان، ويطفح كيانه كله بفرح لا يقاوم؟ لماذا ليالٍ بلا نوم تمر كلحظة، في بهجة وسعادة لا تنضبان، وعندما يرسل الفجر شعاعه الوردي من نافذته وينير الفجر غرفته الحزينة بضيائه العجيب والمريب، كما عندنا في بطرسبورغ، لماذا يرتمي صاحبنا الحالم، مرهقاً، منهكاً، فوق سريره وينام، منقطع الأنفاس من الحماس والفرح الشديد ومهتاج النفس بشكل مرضي مع الإحساس بألم مؤذٍ ولذيذ في أعماق الروح؟

أجل، يا ناستينكا، أي شخص يمكن أن يخطئ، فيظن، عن غير قصد، ومن الخارج، أن العاطفة الحقيقية الصحيحة، هي التي تهيج روحه، ويعتقد حتى دون أن يقصد، أن هناك شيئاً حياً، ملموساً، في أحلام غير مادية! ولكن يا له من خداع: خذي، مثلاً، هذا الحب ينزل في صدره بكل فرحه الذي لا ينضب، وبكامل آلامه المضنية. . . انظري إليه فقط وستقتنعين! أتظنين، وأنت تنظرين إليه، يا عزيزتي ناستينكا، أنه في الواقع، لم يعرف أبداً تلك التي أحبها بكل عواطفه الجياشة في أحلامه المهتاجة؟ هل من الممكن حقاً أنه لم يرَها إلا بين الأشباح الساحرة، وأن هذه العاطفة لم تكن بالنسبة إليه إلا حلماً؟ هل من الممكن حقاً أنهما لم يضعا قط يداً في يد طوال سنوات من حياتهما، وحدهما، هي وهو، طارحين العالم كله جانباً، وقد ربط كل منهما عالمه وحياته بعالم وحياة الآخر؟

هل من الممكن حقاً، أن لا تكون هي التي كانت، في الليل، حين دقت ساعة الفراق، تستلقي فوق صدره، منتحبة، يائسة، دون أن تسمع العاصفة الهوجاء، التي كانت تدوي تحت السماء الكئيبة، دون أن تسمع الريح، التي كانت تنزع وتحمل بعيداً دموع أهدابها السوداء؟ أحقاً لم يكن كل ذلك إلا حلماً - وهذه الحديقة، الحزينة، المهجورة، الفظة، بممراتها التي غزاها الطحلب، والمنعزلة، والقاتمة، حيث كانا كثيراً ما يتنزهان، معاً، يأملان، ييأسان، يحبان، يتحابان، زمناً طويلاً، «زمناً طويلاً، وبرقّة وحنان»[20]! وهذا المنزل القديم، منزل الأسلاف الغريب، حيث عاشت سنوات طويلة، متوحدة وحزينة، مع زوجها العجوز الكئيب، الصامت باستمرار، والغضوب، الذي كان يرهبهما، هما، الخجولان كطفلين، هما، اللذان كانا خائفين، حزينين، يخفيان حبهما المتبادل؟

كم كانا معذبين، كم كانا خائفين، وكم كان حبهما طاهراً وبريئاً، وكم كان الناس (وهذا واضح بالطبع، يا ناستينكا) أشراراً! و، يا إلهي، أليست هي التي التقاها بعد ذلك بعيداً عن ضفاف وطنهما، تحت سماء أجنبية، جنوبية، حارة، في المدينة الخالدة الرائعة، في بريق حفلة راقصة، صاخبة الموسيقى، وفي «بالاتسو» - منزلٍ - قصرٍ (بالإيطالية)، نعم، (بالاتسو، من دون شك) غارقٍ في بحر من الأضواء، فوق هذه الشرفة المكللة بالآس والورود، حيث إنها، لما عرفته، نزعت قناعها حالاً، وهمست: «أنا حرة»، مرتعشة، وشاهقة، ثم ارتمت على ذراعيه، وفي صرخة فرح، عانق أحدهما الآخر، وفي لمح

البصر، نسيا الحزن، والفراق، وكل الآلام، والمنزل القاتم، والعجوز الجهم، والحديقة المظلمة، في وطنهما البعيد، وذلك المقعد الذي كانا جالسين عليه، وأثناء قبلة أخيرة حارة العاطفة، انتزعت نفسها من بين ذراعيه المتجمدين بألم اليأس... آه! سلّمي، يا عزيزتي ناستينكا، بأننا يمكن أن نطير مرفرفين، ونضطرب، ونحمر حياء كتلميذ يدس في جيبه تفاحة سرقها من حديقة مجاورة، عندما يأتي صبي قوي البنية، طويل الجسم، مِمْراح ومزّاح، من معارفك، ضيفك غير المنتظر، ويفتح بابك، ويصيح كأن شيئاً لم يكن: «هذا أنا، يا عزيزي، وصلت في هذه اللحظة من بافلوفسك!» يا إلهي، الكونت العجوز مات، وها هي ذي أخيراً سعادة لا توصف تشرع أبوابها أمامك، وتواً جاء إليك أناس من بافلوفسك!».

أنهيت هتافاتي الحماسية وصمتّ بشكل مثير للشفقة. أذكر أني شعرت برغبة رهيبة في أن أنفجر ضاحكاً بصوت عالٍ، كيفما اتفق، وأن أسرف في الضحك، إذ كنت أحس بأن شيطاناً صغيراً لدوداً أخذ يتحرك في داخلي، فبدأ يستولي على حلقي، وأخذ يهتز ذقني، وكانت عيناي تخضلان أكثر فأكثر...

كنت أتوقع من ناستينكا، التي كانت تصغي إلي، مفتحة العينين الصغيرتين الذكيتين على سعتهما، أن تنطلق فجأة بضحكها الطفولي المرح الذي لا يقاوم، كنت فعلاً نادماً على المضي في الحكي بعيداً، إذ كان من العبث أن أقول لها ما كان يغلي في قلبي منذ مدة طويلة جداً، ذلك الذي كان يمكن لي أن أتكلم عليه كما لو كنت أقرأ كتاباً، لأنني، منذ مدة طويلة، كنت

قد أصدرت حكمي على نفسي، ولم أتردد حتى الآن في أن أتلوه مرة أخرى، رغم أني، أسلّم بذلك، لا أتوقع أن أفهم، لكنني استغربت من أن تصمت ناستينكا برهة، ثم، بعد ذلك بقليل، شدت على يدي برفق، وسألتني بتعاطف خجول:

- «هل من الممكن حقاً أنك عشت هكذا كل حياتك؟».

أجبتها:

- «كل حياتي، يا ناستينكا! طوال حياتي، وأظن أنني هكذا سأنهيها!».

فقالت بقلق:

- «كلا، مستحيل، لا يمكن أن يكون هذا، وإلا، فأنا أيضاً، أراهن على أن أقضي كل حياتي بجانب جدتي. ولكن، اسمعني، أتعرف أنه ليس جيداً على الإطلاق العيش بهذه الطريقة؟».

صحت، دون أن أستطيع كبح عواطفي وقتاً أطول:

- «أعرف ذلك، يا ناستينكا، أعرفه تماماً! وأدرك الآن أكثر من أي وقت مضى، أنني أضعت سدى أفضل أيام حياتي! أعلم الآن، ويؤلمني كثيراً هذا الشعور منذ أن أرسلك الله إلي، يا ملاكي الحارس، كي تقولي وتثبتي لي ذلك.

والآن، بينما أنا جالس بجانبك، وأتكلم معك، أشعر بالخوف من التفكير في المستقبل، لأنني في المستقبل سوف أجد الوحدة مرة أخرى، وأجد من جديد هذه الحياة المغلقة، العقيمة. . . وبماذا إذن يمكنني أن أحلم، ما دمت، في الواقع، بالقرب منك، كنت سعيداً جدا! آه! بوركت، يا فتاتي العزيزة،

لأنك لم تصديني منذ الوهلة الأولى، لأنك سمحت لي أن أقول اليوم إنني عشت على الأقل أمسيتين في حياتي!».

صاحت ناستينكا، وقد تلألأت في عينيها دمعات صغيرة:

- «آه! لا، لا! كلا لن يحدث ذلك قط. لن نفترق هكذا! ما هما هاتان الأمسيتان؟

- آه! ناستينكا! ناستينكا! أتعرفين أنك صالحتني لمدة طويلة مع نفسي؟ أتعرفين أنني من الآن فصاعداً لن يكون لي رأي سيئ عني، كما فعلت في بعض اللحظات؟ أتعرفين أنني لن أندم الآن على اقتراف جريمة أو خطيئة في حياتي (لأن مثل هذه الحياة جريمة وخطيئة)؟ ولا تظني أنني أبالغ في أي شيء، بحق السماء، لن تتصوري ذلك، يا ناستينكا، لأنني عشت أحياناً، لحظات في غاية الحزن والضجر... لأنني في مثل تلك اللحظات كان يبدو لي أنني لن أستطيع أبداً أن أعيش من جديد حياة حقيقية، لأنه بدا لي سابقاً أنني فقدت كل اتصال بالحاضر، كل حسّ بالواقع، لأنني، أخيراً، بعد ليالي الخيالية، مرت علي لحظات من الصحو رهيبة! ومع ذلك أسمع الحشد البشري يدور ويهدر حولي في دوامة الحياة، أرى الناس الذين يعيشون، يعيشون يقظين، أرى أن الحياة بالنسبة إليهم ليست محظورة، أن حياتهم لا تتبخر مثل حلم، مثل رؤية، أن حياتهم متجددة الشباب دائماً وإلى الأبد، لا ساعة منها تشبه أخرى، بينما هو كئيب، ورتيب، إلى حدّ التفاهة، هذا الخيال المذعور، عبد الظل، الفكرة، عبد أول غيمة تحجب الشمس فجأة، وتصيب بالكآبة القلب الحقيقي البطرسبورغي، المغرم بشمسه... وأي

خيال في هذه الكآبة! إننا نشعر أنه في آخر الأمر يتعب، ينهك في التوتر الدائم، هذا الخيال الذي لا ينضب، لأننا نكبر، على كل حال، لأننا نتجاوز المثل العليا القديمة: التي تتفتت غباراً، تسقط حطاماً، وإذا لم تكن هناك حياة أخرى، فمن الضروري بناؤها بهذه الأنقاض نفسها. ومع ذلك، تطلب الروح، وتريد شيئاً آخر!

وعبثاً يبحث الحالم في رماد أحلامه القديمة، إنه يبحث في هذا الرماد على الأقل عن شرارة لينفخ عليها، عن نار جديدة ليدفئ قلبه البارد، ما يؤثر في الروح، ما يجعل الدم يغلي، ما يستدر الدموع من العيون ويخدع بصورة رائعة!

هل تعلمين، يا ناستينكا، إلى أي حدّ وصلت؟ هل تعرفين أنني اضطررت إلى الاحتفال بعيد ميلاد مشاعري، بعيد ميلاد ما كان من قبل عزيزاً عندي، بشيء، في الواقع، لم يوجد أبداً - لأن عيد الميلاد الذي أحتفل به هو عيد ميلاد أحلامي الغبية والعبثية - والاحتفال بذلك لأن هذه الأحلام الغبية نفسها لم توجد أبداً، لأنه لا يوجد شيء يمكن أن يساعدها على البقاء على قيد الحياة: حتى الأحلام يجب عليها أن تقاوم للبقاء على قيد الحياة، أليس كذلك؟ هل تعلمين أنني أحب الآن أن أتذكر وأزور في بعض التواريخ الأماكن التي كنت فيها سعيداً يوماً على طريقتي، أحب بناء حاضري في وِئام مع ماضٍ لن يعود أبداً، وأجول غالباً مثل ظل، بلا سبب، ودون هدف، كئيباً، وحزيناً، في أزقة وشوارع بطرسبورغ.

وأية ذكريات في كل مكان! إنني أذكر، على سبيل المثال،

أن في هذا المكان، منذ عام بالضبط، في هذه اللحظة بالذات، في هذه الساعة نفسها، على هذا الرصيف ذاته، كنت أهيم على وجهي كئيباً، حزيناً، كما الآن! وأذكر أن أحلامي كانت تبدو لي هي أيضاً حزينة و، حتى، لو لم أكن من قبل أفضل حالاً، فإنني أحس رغم كل شيء بأن الحياة كانت أسهل وأهدأ، لم أكن أعرف هذه الفكرة السوداء، التي تلتصق بي الآن، لم أكن أعرف هذه الندامة القاتمة، الكالحة، التي لا تدع لي راحة، نهاراً وليلاً. وتتساءل: أين هي إذن أحلامك؟ وتهز رأسك قائلاً: كم تطير السنوات سريعاً! وتتساءل من جديد: ماذا فعلت بسنواتك؟ أين دفنت أفضل وقتك؟ هل عشت، نعم أو لا؟ انظر، كنت تقول لك، انظر، كم هو هذا العالم بارد. سنوات أخرى ستمر، وتعقبها الوحدة الحزينة، والشيخوخة المرتعشة مع عكازها، وبعد ذلك، الضجر واليأس. سيشحب عالمك الخيالي، ستموت، ستذبل، أحلامك، وستسقط كما تهوي الأوراق الصفراء من الأشجار... آه، يا ناستينكا، كم سيكون حزيناً، أن يبقى المرء وحيداً، وحيداً تماماً، وألا يكون لديه حتى شيء يتأسف عليه، لا شيء إطلاقاً... لأن كل ما فقدته، كل هذا، ليس شيئاً، ليس إلا صفراً منقّطاً، غبياً، كل هذا لم يكن إلا حلماً!».

همست ناستينكا، وهي تمسح دمعة صغيرة تدحرجت فوق وجنتها:

– «حسناً، لا تثر شفقتي أكثر! الآن، انتهى الأمر! الآن، سنكون اثنين، الآن، مهما يحدث لي، لن نفترق أبداً. اسمع.

أنا فتاة بسيطة، درست قليلاً، رغم أن جدتي أتت لي بمعلم، إلا أنني، حقاً، أفهمك، لأن كل ما حكيت لي الآن، عشته أنا نفسي، عندما ربطتني جدتي إلى ملابسها بدبوس. طبعاً، لا أستطيع أن أحكيه جيداً مثلك، فأنا لم أدرس - أضافت بخجل، لأنها كانت تشعر دائماً بنوع من الاحترام لخطابي المثير للشفقة وأسلوبي الرفيع - ولكنني سعيدة جداً لأنك فتحت لي قلبك. الآن، أنا أعرفك تماماً، أعرفك كاملاً. وهل تعلم؟ أريد أن أحكي لك قصتي أنا بدوري، قصتي الكاملة، وأنت، بعد ذلك، في المقابل، ستسدي إلي نصيحة. أنت إنسان ذكي جداً، فهل تعدني بأنك، بعد ذلك، سوف تقدِّم لي هذه النصيحة؟».

أجبتها:

- «آه! ناستينكا، لم أكن أبداً مستشار أحد، ناهيك عن مستشار ذكي، ولكن أرى الآن أنه، إذا واصلنا العمل بهذه الطريقة، سيكون أمراً ذكياً وكل يعطي الآخر كتلة من النصائح الذكية! وإذن، يا عزيزتي ناستينكا، ما هي هذه النصيحة؟ قوليها لي صراحة، أنا الآن شديد المرح وسعيد جداً، وفي غاية الشجاعة والذكاء، بحيث إن الكلمات ستأتيني من دون عناء».

قاطعتني ناستينكا باسمة:

- «كلا، كلا! ما أحتاج إليه، ليس فقط نصيحة ذكية، بل نصيحة من أعماق القلب، نصيحة أخ، كأنك أحببتني كل حياتك!».

صحت بحماس:

- «سيكون ذلك، يا ناستينكا، لك ذلك! وحتى لو أحببتك

منذ عشرين سنة، على كل حال، فلن أحبك أكثر من هذه اللحظة!

- هات يدك!».

أجبتها وأنا أمد إليها يدي:

- «ها هي ذي!

- وإذن، لنبدأ قصتي!».

قصة ناستينكا

- «أنت الآن تعرف نصف القصة، يعني أنك تعرف أن لدي جدة عجوزاً...».

قاطعتها ضاحكاً:

- «إذا كان النصف الثاني قصيراً أيضا، مثل هذا...

- اسكت واسمع. قبل كل شيء لنتفق: لا تقاطعني، وإلا فإنني قد أرتبك. وإذن، أنصت بهدوء.

لدي جدة عجوز. وجدت نفسي عندها وأنا بعد صغيرة، بعد وفاة أمي وأبي. لا شك أن جدتي كانت غنية في الماضي، لأنها ما زالت حتى الآن تتذكر أفضل أيامها الخوالي.

هي التي علمتني الفرنسية، وفيما بعد أتت لي بمعلم.

عندما بلغت خمسة عشر عاماً - عمري الآن سبع عشرة سنة - تركنا الدراسة.

وفي ذلك الوقت، ارتكبت حماقة. ماذا فعلت، لن أقول لك ذلك، يكفيك أن تعرف أن الخطأ لم يكن كبيراً. ولكن جدتي دعتني إليها ذات صباح، وقالت لي إنها، ما دامت ضريرة، لا تستطيع أن تتبعني في كل مكان، وعندئذ أخذَت

دبوساً وربطت ثيابي إلى ثيابها، وأضافت قائلة إننا سنبقى هكذا معاً طوال حياتينا، إلا إذا أنا أصلحت نفسي بطبيعة الحال.

باختصار، في الأيام الأولى، لم يكن من الممكن إطلاقاً أن أبتعد عنها قيد أنملة: ولا سبيل إلى العمل والقراءة والدراسة، إلا بجانب جدتي دائماً.

ذات مرة، حاولت الاحتيال فأقنعت فيوكلا بالجلوس مكاني. فيوكلا، هي خادمتنا، وهي صماء. جلست فيوكلا مكاني، وخلال هذا الوقت، نامت جدتي، على أريكتها، وذهبت أنا إلى بيت صديقة، ليس بعيداً. ولكن العاقبة كانت سيئة.

أثناء غيابي، استيقظت جدتي وطلبت شيئاً، معتقدة أنني ما زلت جالسة إلى جانبها بهدوء. رأت فيوكلا أن جدتي تلقي سؤالاً، ولكنها لم تسمع شيئاً، وحكّت رأسها وفكرت ملياً، ثم فكت الدبوس، وركضت بعيداً...».

هنا، توقفت ناستينكا، وأخذت تضحك بصوت عالٍ. وضحكت معها. فكفت عن الضحك حالاً.

- «اسمع إذن، لا تضحك على جدتي. أنا أضحك لأن الأمر مضحك... ماذا تريد... صحيح أن جدتي هكذا... إلا أنني، رغم كل شيء، أحبها قليلاً. حسناً... ولكن، في هذه اللحظة، وبَّختني وأعادتني فوراً إلى مكاني ومن ثم لا كلمة ولا نأمَة.

طيب، وإذن، نسيت أيضاً أن أقول لك إن لدينا، أو بالأحرى، إن لدى جدتي بيتاً، أو بالأحرى، لها بيت صغير، من

ثلاث نوافذ فقط، بيت خشبي صغير وأقدم من جدتي، وفي أعلاه كانت توجد سقيفة. حسناً، وإذا بمستأجر جديد، جاء إذن ليسكن في هذه السقيفة...».

قلت ملاحظاً بشكل عابر:

- «وإذن، كان هناك مستأجر قديم؟».

أجابت ناستينكا:

- «بالطبع، كان، ويعرف أن يصمت أفضل منك. حقاً، كان من الصعب عليه أن يقول كلمة. كان عجوزاً صغيراً، نحيفاً، أخرس، أعمى، أعرج، حتى إنه في النهاية لم يستطِع أن يعيش على هذه الأرض، فمات، وبالتالي كان لا بد لنا من مستأجر جديد، لأننا لم نكن نستطيع الاستغناء عن مستأجر: إذ كان معاش جدتي تقريباً هو دخلنا الوحيد.

كان هذا المستأجر الجديد، كما لو بالمصادفة، شاباً، ليس من هنا، ولكنه عابر سبيل. وبما أنه لم يساوم، قبلته جدتي.

ولكنها فيما بعد سألتني: وماذا إذن، يا ناستينكا، نزيلنا الجديد، أهو شاب أم لا؟ لم أرد أن أكذب فقلت لها: هكذا، يا جدتي، ليس صغيراً تماماً، ولكنه ليس كبيراً أيضاً.

ثم سألتني جدتي:

- طيب... ومظهره لطيف؟

ومن جديد لم أرد أن أكذب فقلت لها:

- نعم، مظهره لطيف جداً، يا جدتي!

فقالت لي جدتي:

- آه! يا لها من مصيبة! يا لها من أذية! أقول لك هذا، يا

حفيدتي، لكي لا تنظري إليه كثيراً. يا له من عصر! انظري هذا، مستأجر تافه، ولطيف المظهر أيضاً: لم يكن هكذا في الأيام الخوالي!

إن جدتي تعيش دائماً في الأيام الخوالي! حين كانت أكثر شباباً، في الأيام الخوالي، والشمس كانت تدفئ أكثر في الأيام الخوالي، والحليب في الأيام الخوالي لم يكن يحمض بسرعة: دائماً في الأيام الخوالي! وأظل أنا جالسة دون أن أنبس بكلمة وأتساءل في نفسي: ما بال جدتي تنبهني، وتسألني عن نزيلنا أهو شاب ولطيف؟ ولكنني كنت أفكر فقط، هكذا، وعلى الفور أخذت من جديد أعدّ العُرى وأحيك جواربي الطويلة، ثم ما لبثت أن نسيت تماماً.

ذات مرة، صباحاً، جاء إلينا المستأجر، ليذكرنا بأنه وُعد بتغطية جدران غرفته بالورق. وكلمة بعد كلمة، قالت لي جدتي - الكثيرة الكلام: «ناستينكا، اذهبي إذن إلى غرفتي وهاتي لي العدّادة». فقفزت أنا على الفور، وإذا بي أحمر، لا أدري لماذا، من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، ونسيت تماماً أنني مربوطة مع جدتي بدبوس، وبدلاً من إزالة الدبوس بكل هدوء، لئلا يلاحظ المستأجر شيئاً، وثبت بسرعة حتى أن أريكة جدتي انطلقت ورائي. ولما رأيت أن النزيل اكتشف الآن كل أسراري، تضرجت خجلاً، وتجمدت في مكاني وانهمرت فجأة دموعي: إذ شعرت بالخجل الشديد والأسى المرير إلى حدّ أني تمنيت لو أموت!

وتصيح علي جدتي: «ماذا تفعلين؟» وأنا بعد في أسوأ

حال. . . فنظر النزيل إلي، ولما رآني خجلى أمامه، انحنى وانصرف فوراً.

ومنذ ذلك الحين، لا أكاد أسمع أي صوت في المدخل، حتى أتجمد في مكاني كالميتة.

ها هو ذا، أقول لنفسي، المستأجر الذي يمرّ، وعلى كلّ حال، بكل هدوء، كنت أقوم بحلّ الدبوس. ومع ذلك، لم يكن هو على الإطلاق، لم يأتِ. مرّ أسبوعان: أرسل النزيل فيوكلا لتقول لنا إن لديه كثيراً من الكتب الفرنسية، كلها كتب جيدة، كتب جديرة بالقراءة: هلّا تقبل جدتي أن أقرأها عليها، لأسليها؟ وافقت جدتي بامتنان، إلا أنها كانت تسأل دائماً هل هذه الكتب أخلاقية أو لا، لأنها إذا كانت كتباً غير أخلاقية، تقول لي، لا يجوز لك، يا ناستينكا، لا يجوز لك إطلاقاً أن تقرئيها، ستتعلمين منها أشياء قبيحة.

- وماذا سأتعلم منها إذن، يا جدتي؟ وماذا يوصف فيها؟

- آه، تقول لي، يوصف فيها كيف يغوي الشبانُ البنات حسناتِ السيرة والسلوك، وكيف ينتزعونهن من بيت والديهن، مستذرعين بأنهم يريدون الزواج بهن، وبعد ذلك يسلِّمون هؤلاء الفتيات التعيسات إلى مصيرهن، فيهلكن بطرق مثيرة للرثاء. أنا، تقول جدتي، قرأت كثيراً من الكتب مثل هذه، وكل ما فيها جميل الوصف، تقول لي، بحيث يمكن أن نقضي الليل كله في قراءتها بكل هدوء. وهكذا، تقول لي، حذار، يا ناستينكا، لا تقرئيها. وإذن، ما هي هذه الكتب التي أرسلها؟

- كلها روايات لوالتر سكوت، يا جدتي!

- روايات والتر سكوت! ولكن، انتظري، أليست هناك بعض الدسائس؟ انظري جيداً، ألا يمكن أن توضع داخلها بعض البطاقات الغرامية؟

- لا، يا جدتي، لا توجد أية بطاقة.

- انظري إذن تحت جلد الكتاب. في بعض الأحيان يدسونها تحت التجليد، أولئك اللصوص!

- لا، يا جدتي، لا شيء حتى تحت التجليد.

- وإذن، لا بأس.

وشرعنا في قراءة روايات والتر سكوت، وخلال شهر قرأنا منها النصف تقريباً. ثم، أتى لنا بأخرى وأخرى غيرها أيضاً، وأرسل لنا بوشكين، إلى حدّ أني في آخر الأمر ما عدت قادرة على الحياة دون كتب وكففت عن التفكير في الزواج بأمير صيني.

هكذا جرت الأمور، عندما التقيت بالنزيل عندنا ذات مرة على السلم. كانت جدتي قد أرسلتني لآتي لها بشيء. توقف، احمر وجهي خجلاً وهو أيضاً خجل، ومع ذلك أخذ يضحك، قال لي أهلاً، وسألني عن أحوال جدتي، وقال: وإذن، عندك الكتب؟ أجبت: نعم. ثم سألني: وماذا أعجبك أكثر؟ وأنا، أجبته: أفضّل إيفانهويه[21] وبوشكين، أكثر من أي شيء آخر. وفي هذه المرة وقف بنا الأمر عند ذلك.

وبعد أسبوع، سيلتقي بي على السلم من جديد. وفي هذه المرة لم ترسلني جدتي، بل أنا التي كنت في حاجة إلى شيء. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية، وفي هذا الوقت، دخل

المستأجر عندنا إلى البيت. قال لي: مرحباً! قلت له: أهلاً! وسألني:

- قولي لي، ألا تشعرين بالملل، من الجلوس، طوال النهار، مع جدتك؟

حين ألقى علي هذا السؤال، لا أدري حقاً لماذا احمر وجهي حياء، خجلت واستأت من جديد، لا شك لأن أناساً آخرين كانوا فعلاً قد بدأوا يسألونني عن هذا الأمر. أردت أن لا أجيب وأن أهرب، لكنني لم أقوَ على ذلك.

قال لي:

- اسمعي، أنت فتاة طيبة، معذرة، إذا تكلمت معك هكذا، ولكنني أتمنى لك الخير، أكثر من جدتك. أليست لك صديقة تستطيعين الذهاب إليها؟

قلت له لا، كانت لدي صديقة، ولكنها ذهبت إلى بسكوف.

قال لي:

- اسمعي، هل تريدين الذهاب معي إلى المسرح؟

- إلى المسرح؟ ولكن، جدتي؟

قال لي:

- وإذن، خفية عن جدتك...

قلت:

- لا، لا أريد خداع جدتي. إلى اللقاء!

قال ولم يضف شيئاً:

- طيب، إلى اللقاء!

بعد الغداء فقط جاء إلينا. جلس، تكلم مدة طويلة مع جدتي، سألها إن كانت تخرج أحياناً، إذا كان لديها بعض المعارف، ثم قال فجأة:

- وبالمناسبة، اليوم، حجزت شرفة في الأوبرا، حيث تعرض «حلاق إشبيلية»[22]، أراد مشاهدتها أصدقاء، وبعد ذلك، غيروا رأيهم، بقيت لدي تذكرة زائدة.

صاحت جدتي:

- حلاق إشبيلية! هي نفس «الحلاق» التي كانت تعرض في الأيام الخوالي؟

قال وهو يلقي علي نظرة:

- نعم، هي نفس «الحلاق»!

وفهمت أنا الآن كل شيء، فاحمر وجهي خجلاً، وخفق قلبي أملاً!

قالت جدتي:

- ولكن كيف إذن، أعرفها بالطبع. أنا نفسي، في الأيام الخوالي، أديت دور روزين في عرض بالمنزل.

سألها النزيل عندنا:

- وإذن، ألا تريدين الذهاب إليها في هذا المساء؟

فأجابت جدتي:

- بل أجل، لنذهب إليها! لم لا نذهب؟ ثم إن عزيزتي ناستينكا لم تذهب قط إلى المسرح.

يا إلهي، ما أشد فرحي! وتهيَّأنا باكراً، وارتدينا ملابسنا، وانطلقنا. ورغم أن جدتي ضريرة، كانت ترغب في سماع

الموسيقى، وفضلاً عن ذلك كانت سيدة عجوزاً طيبة القلب: أرادت بالأخص أن تسعدني، وإلا، ما كان يمكن أن نذهب من تلقاء نفسينا. لا داعي، الآن، لأصف لك الأثر الذي تركته في أوبرا «حلاق إشبيلية»، إلا أن المستأجر عندنا لم يكفّ طوال ذلك المساء عن التطلع إلي بنظرة طيبة والكلام معي بصورة لطيفة، فأدركت على الفور أنه كان في الصباح يريد أن يختبرني حين اقترح علي الذهاب معه وحدي. يا إلهي، ما أشد فرحي! نمت فخورة ومسرورة، وكان قلبي يخفق خفقاناً شديداً، بحيث أصبت بنوبة حمى خفيفة، وبتّ الليل كله أهذي بـ«حلاق إشبيلية».

ظننت أنه بعد ذلك سوف يأتي إلينا كثيراً. لا، على الإطلاق: كفّ عن زيارتنا تقريباً.

مرة في الشهر، ربما، جاء إلينا، فقط ليدعونا إلى المسرح. عدنا إليه مرة أخرى أو مرتين أخريين، غير أني اغتظت من ذلك. فهمت أنه بكل بساطة كان يشفق علي فقط، لأنه رآني عند جدتي على هذه الحال، نعم، ولا شيء غير ذلك. وعلى مرّ الأيام، كدت أن أفقد عقلي: ما عدت أجلس في مكاني هادئة، كنت أقرأ دون أن أقرأ، أعمل دون أن أعمل، وأضحك أحياناً، وأقوم بأي شيء لإزعاج جدتي، وفي مرات أخرى، كنت أبكي بكل بساطة. وفي آخر الأمر، أصبحت نحيفة، وكدت أن أسقط مريضة.

كان قد انتهى موسم الأوبرا، ولم يعد المستأجر عندنا يأتي لزيارتنا، وعندما نلتقي، دائماً على السلم، طبعاً، يُومئ إلي

برأسه، دون أن ينبس ببنت شفة، ولكن بصورة وقورة جداً، كأنه لا يريد أن يكلمني، وكان هو عندئذ في الأسفل، على درج المدخل، بينما أكون أنا دائماً في منتصف السلم، حمراء مثل كرزة، لأن الدم كان يصعد إلى رأسي، حالما ألتقيه.

الآن، أوشكت على إنهاء قصتي. منذ عام بالضبط، في شهر مايو جاء المستأجر عندنا، وقال لجدتي إنه أكمل أعماله بنجاح هنا، وإن عليه أن يعود لمدة عام إلى موسكو. وفي هذه اللحظة امتقع لوني وسقطت على كرسي، كأنني ميتة. لم تلاحظ جدتي شيئاً. وهو، بعد أن أعلن أنه سيغادر المنزل، ألقى التحية وانصرف.

ماذا كان علي أن أفعل؟ فكرت طويلاً، طويلاً، وتحسرت كثيراً! ثم اتخذت أخيراً قراري. كان عليه أن يرحل الغداة. وقررت أنا أن أنهي كل شيء في المساء، عندما ستأوي جدتي إلى النوم. وهذا ما حدث. وضعت في صرة كل ما لدي من فساتين ومن ملابس داخلية ضرورية، وتناولت صرتي وصعدت نصف ميتة خوفاً، إلى سقيفة المستأجر عندنا. أظن أنني أمضيت ساعة كاملة أثناء صعودي على السلم. عندما فتحت عليه بابه، أطلق صيحة حين رآني. كان يخالني شبحاً. فهرع ليأتي لي بالماء، لأني كنت بالكاد أستطيع الوقوف على قدمي. كان قلبي شديد الخفقان، بحيث أصبت بالصداع وشعرت كأني فقدت صوابي، وعندما ثبت إلى رشدي، بدأت بوضع صرتي على حافة سريره وجلست بالقرب منها، وأخفيت وجهي بيدي، وانخرطت في البكاء بدموع غزيرة. وهو، فيما أظن، فهم كل شيء في لمح

البصر. كان واقفاً أمامي، شاحباً، متطلعاً إلي بنظرات حزينة جداً، بحيث انفطر لها قلبي. وبدأ كلامه قائلاً:

- اسمعي، اسمعيني، إنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً، أنا فقير، لا أملك شيئاً في الوقت الحاضر، ليس لدي حتى مكان مناسب، بماذا سنعيش، حتى لو تزوجتك؟

تحدثنا طويلاً، ولكنني في آخر الأمر أصبت بنوبة عصبية، فقلت إنني لم أعد أستطيع العيش عند جدتي، وإنني سوف أهرب من بيتها وإنني لا أطيق أن أبقى مشبوكة بها وإنني - سواء شاء أم أبى - سأذهب معه إلى موسكو، لأنني لا أستطيع أن أعيش من دونه. العار، الحب، الكبرياء، الكل كان يتكلم في وقت واحد، وكدت أن أقع فوق السرير متشنجة. كنت خائفة جداً من الفشل!

بقي جالساً بضع دقائق دون أن ينبس ببنت شفة ثم وقف، اقترب مني، وأخذ يدي. وبدأ يقول من خلال دموعه هو أيضاً:

- اسمعي، أيتها الطيبة، الحبيبة ناستينكا! اسمعيني. أقسم لك، إذا كنت يوماً قادراً على الزواج، فأنت التي ستحققين سعادتي، أؤكد لك ذلك، أنت وحدك تستطيعين الآن إسعادي. اسمعي إذن: سأذهب إلى موسكو، وسأقضي فيها سنة بالضبط. آمل ترتيب شؤوني. وعندما سأعود، وإذا كنت ما زلت تحبينني، أقسم لك، سوف نكون سعيدين. الآن، مستحيل، لا أستطيع، ولا يحق لي أن أعد بأي شيء. ولكن، أكرر لك ذلك، لو لم يتحقق هذا في ظرف سنة، وسوف يتحقق هذا يوماً دون أدنى شك، وبالطبع، إذا لم تفضّلي علي شخصاً آخر، لأنني لا

أستطيع، ولا يحق لي أن أربطك بأية كلمة. هذا ما قال لي وسافر في الغداة. قررنا معاً ألا نقول شيئاً لجدتي. هو الذي أراد ذلك.

ها هي ذي قصتي توشك الآن تقريباً على الانتهاء. مضى عام، بالضبط. لقد عاد، وهو الآن هنا منذ ثلاثة أيام و، و. . .».

صحت، نافد الصبر لمعرفة النهاية:

- «و. . . ماذا؟».

أجابت ناستينكا، كما لو كانت تستجمع كل قُواها:

- «ولم يأتِ بعد! لم يظهر له أثر. . .».

وهنا، توقفت، صمتت لحظة، وفجأة أخفت وجهها بيديها وانخرطت في البكاء إلى حدّ أن دموعها فطرت قلبي.

لم أتوقع حلّ عقدة مثل هذه.

قلت وأنا أقترب منها، بصوت خجول وعطوف:

- «ناستينكا! ناستينكا! كفي عن البكاء، بحق السماء! ما أدراك، لعله لم يحضر بعد. . .».

وأضافت:

- «بل كلا، كلا! إنه هنا! أنا أعرف ذلك. كنا قد اتفقنا، في ذلك المساء، عشية سفره: عندما قلنا كل ما حكيت لك، اتفقنا على ذلك، وأتينا للنزهة ها هنا، على هذا الرصيف بالذات. كانت الساعة العاشرة، حين جلسنا على هذا المقعد. لم أكن أبكي، كان يحلو لي أن أصغي إلى ما كان يقول. . . قال إنه بمجرد أن يصل سوف يأتي إلينا، وإذا أنا لم أرفضه، سنقول

كل شيء لجدتي. أنا أعرف أنه قد وصل الآن، وهو ليس هنا، ليس هنا!».

وانخرطت في البكاء من جديد.

صحت وأنا أنهض من مقعدي، يائساً تماماً:

- «يا إلهي! أما من سبيل إلى علاج حزنك؟ قولي لي، يا ناستينكا، ألا يمكن أن أمضي لأراه؟».

قالت وهي ترفع رأسها فجأة:

- «أهذا ممكن حقاً؟».

لاحظت، مستدركاً:

- «لا، طبعاً، لا! ولكن، هناك شيء آخر: اكتبي له رسالة».

أجابت، بعزم، ولكنها خفضت رأسها الآن، دون أن تنظر إلي:

- «لا، مستحيل، لا يمكن!».

وتابعت، متمسكاً بفكرتي:

- «كيف لا يمكن، ولِم لا يمكن؟ ولكن، أتعلمين، يا ناستينكا، أي نوع من الرسائل؟ هناك رسالة ورسالة أو... آه! يا ناستينكا، هكذا بالضبط... صدقيني، ثقي بي، أنا لن أعطيك نصيحة سيئة. كل هذا يمكن إصلاحه! أنت التي قمت بالخطوة الأولى، وإذن، لماذا الآن...

- لا، لا، كنت حينئذ كأنني أفرض نفسي...».

قاطعتها، دون إخفاء ابتسامة:

- «آه! يا عزيزتي اللطيفة، ناستينكا! ولكن، لا، لا، على

الإطلاق. يحق لك ذلك، في آخر الأمر، ما دام هو الذي وعدك. وعلى كل حال، أرى أن كل الإشارات تدل على أنه رجل مرهف الإحساس، وأنه تصرف بنُبل»، وتابعت، متحمساً أكثر فأكثر بمنطق استنتاجاتي وقناعاتي، «كيف كان تصرفه؟ إنه مرتبط بالوعد الذي قطعه لك. قال إنه إذا تزوج، لن يختار غيرك، وأنت، ترك لك كامل الحرية، حتى برفضه في أية لحظة... وهكذا، يمكنك أن تقومي بالخطوة الأولى، يحق لك ذلك، لديك ميزة أكثر منه، إلا إذا كنت، على سبيل المثال، تريدين رفع القيود عن الوعد الذي قطعه...

- استمع إلي، كيف كنتِ ستكتب ذلك، أنت؟

- ماذا؟

- لكن هذه الرسالة.

- أنا، سأكتبها على النحو التالي:

سيدي العزيز.

- هل من الضروري: «سيدي العزيز»؟

- إطلاقاً! لاحظي، في الحقيقة، إنني أتساءل...

- حسناً، طيب، تابع!

- «سيدي العزيز،

عذراً، إذا...» في الحقيقة، لا، لستِ في حاجة إلى أي اعتذار! الحقيقة نفسها تسوّغ كل شيء. اكتبي ببساطة:

«إنني أكتب لك. اغفر لي نفاد صبري. ولكنني عشت طوال سنة كاملة سعيدة بالأمل. فهل هو خطئي، إذا أنا لم أستطِع الآن احتمال يوم واحد من الشك؟ والآن، بما أنك عدت، ربما

غيرت نيتك. وإذن، ستقول لك هذه الرسالة إنني لا أشكو ولا أتهمك. لا أتهمك لأنه لا سلطة لي على قلبك: وربما هذا هو مصيري! أنت إنسان صادق. هذه السطور، النافذة الصبر، لن تثير ابتسامتك ولا إزعاجك. تذكر أن التي كتبَتها لك فتاة فقيرة، وحيدة، ولا أحد لها ليعلمها أو ينصحها، وأنها لم تكن أبداً قادرة على التحكم في قلبها. ولكن سامحني إذا تسلل الشك لحظة إلى روحي. لست قادراً، حتى بالتفكير، على إهانة التي أحبتك كثيراً والتي تحبك».

صاحت ناستينكا وأخذت عيناها تلتمعان فرحاً:

- «نعم، نعم! هذا ما كنت أفكر فيه تماماً. آه! لقد بددت شكوكي! إن الله هو الذي أرسلك إلي. شكراً، آه، شكراً جزيلاً!».

أجبتها وأنا أنظر بحماس إلى وجهها الباسم:

- «على ماذا؟ لأن الله أرسلني إليك؟

- نعم، هذا على الأقل

- آه! ناستينكا! إننا نشكر الناس أحياناً لأنهم يعيشون معنا، أليس كذلك؟ أنا، أشكرك لأنني التقيت بك، ولأنني سأحفظ ذكراك طوال حياتي

- حسناً، يكفي، يكفي! والآن، اسمع قليلاً: كنا اتفقنا على أن يبلغني، فور وصوله، بوضع رسالة في مكان، عند أصدقاء لي، طيبين وبسطاء، لا يعرفون شيئاً من كل ذلك، أو، إذا لم يتمكن من أن يكتب لي، لأننا لا نستطيع دائماً قول كل شيء في رسالة، أن يأتي إلى هنا، بمجرد عودته، في الساعة

العاشرة بالضبط، لأنه المكان الذي قررنا أن نلتقي فيه معاً. أنا أعلم أنه عاد، ولكن ها هي ذي ثلاثة أيام قد مرت ولا أثر لِا لرسالة ولا له. في الصباح، لا يمكن لي على الإطلاق أن أترك جدتي. سلِّم رسالتي غداً إلى هؤلاء الناس الطيبين الذين كلمتك عنهم، وسوف يوصلونها إليه، وإذا كان هناك جواب، سوف تحمله إلي مساء، في الساعة العاشرة...

- ولكن الرسالة! الرسالة! يجب أن تكتب، من قبل، وكل ذلك لا يمكن القيام به إلا بعد الغد».

أجابت ناستينكا مرتبكة قليلاً:

- «الرسالة... الرسالة... ولكن...».

لم تنهِ جملتها. أشاحت أولاً بوجهها عني، واحمرت مثل وردة، وفجأة شعرت برسالة توضع في يدي، من الواضح أنها مكتوبة منذ مدة طويلة، وجاهزة ومختومة. وعبرت ببالي ذكرى مألوفة، حبيبة ولطيفة:

غنيت: ر، و- رو، ز، ي-زي، ن، ا-نا.

روزينا! غنينا معاً، وكدت أنا أن أعانقها في غمرة انتشائي وفرحي، بينما احمرت هي حياء بقدر ما استطاعت، وضحكت من خلال دموعها، التي ارتعشت كاللآلئ الصغيرة فوق أهدابها السوداء.

قالت بسرعة:

- «هيا، يكفي، يكفي! الوداع الآن! خذ، هذه الرسالة، وهذا العنوان الذي ستحملها إليه. الوداع! إلى اللقاء! إلى الغد!».

وشدت على يديّ معاً بقوة، وهزت رأسها وانطلقت مثل سهم نحو زقاقها. بقيت جامداً في مكاني، وأنا أتابعها بنظراتي.

- «إلى اللقاء! إلى الغد!».

نفذت إلى أعماق روحي هذه الكلمات عندما توارت عن ناظري.

الليلة الثالثة

اليوم، كان نهاراً حزيناً، ممطراً، بلا انجلاء، أشبه ما يكون بشيخوختي الآتية. كانت تلحّ علي أفكار غريبة، وأحاسيس مقلقة، وأسئلة لا تزال مبهمة لدي كانت تتراكم في رأسي، ولا قدرة لي ولا إرادة على حلها. لا، لست أنا الذي سيحل كل ذلك!

لن نلتقي اليوم. عندما افترقنا بالأمس، كانت الغيوم بدأت تغطي السماء وأخذ الضباب يرتفع.

قلت لها إن الجو غداً سيكون رديئاً، فلم تردّ علي بشيء، لم ترد أن تقول شيئاً ضدّ نفسها، بالنسبة إليها، كان هذا اليوم مشرقاً ومضيئاً، ولا ينبغي لأية غيمة أن تحجب سعادتها.

قالت:

- «إذا أمطرت، لن نلتقي! لن آتي».

كنت أظن أنها لم تلاحظ مطر اليوم، ولكنها لم تأتِ مع ذلك.

بالأمس، كان لقاؤنا الثالث، وكانت ليلتنا الثالثة البيضاء.

ولكن، كم تجعل الفرحة والسعادة الإنسان جميلاً! كم يطفح القلب حباً! يبدو لك أنك كنت تنوي أن تسكب كل قلبك في قلب الآخر. تريد أن يكون الكل مبتهجاً، ضاحكاً. وكم هو مُعدٍ هذا الفرح! بالأمس كان في كلماتها كثير من الحنان وفي قلبها كثير من اللطف معي. كم دللتني، وكم داعبتني، وكم أترَعَت قلبي رقَّة وشجاعة! وكم من سحر في هذه السعادة! وأنا... سلّمت بكل ما يقال لي، فاعتقدت أنها...

ولكن، يا إلهي، كيف استطعت أن أصدق ذلك؟ كيف استطعت أن أكون أعمى، بينما كان كل شيء للآخر، ولم يكن لي أنا أي شيء، عندما، في آخر الأمر، حتى هذا الحنان، وهذا القلق، وحتى هذا الحب... نعم، حبها لي، كل ذلك ليس إلا الفرح الذي كانت تحس به لرؤية رجل آخر قريباً، وإلا الرغبة في أن تطلعني أنا أيضاً على سعادتها. وعندما رأت أنه لم يأتِ، وأننا انتظرنا دون جدوى، اكتأبت وأصبحت خجلة وجلة ولم تعد حركاتها وكلماتها مريحة ومرحة وبهيجة.

والعجيب والغريب أنها ضاعفت من اهتمامها بي، كأنها كانت تريد غريزياً أن تصب عليّ ما تتمناه لنفسها، وما تخشى أن لا يتحقق. كانت عزيزتي ناستينكا الآن شديدة الخجل والخوف، بحيث اعتقدت أنها فهمت أخيراً أنني أحبها، وأنها مشفقة على حبي البائس. وهكذا، عندما نكون تعساء، فإننا نحس بمحنة الآخرين بصورة أفضل. إن الإحساس لا يتبدد، بل إنه يشتد...

جئت إليها طافح القلب، وانتظرت ساعة اللقاء بكثير من العناء. لم أكن أتوقع ما سوف أشعر به اليوم، ولم أكن أتوقع أن

كل شيء سوف ينتهي هكذا. كانت تشع فرحاً، كانت في انتظار الجواب. وكان هذا الجواب هو ذاته. كان عليه أن يأتي، أن يسرع بالمجيء إليها. كانت قد سبقتني بساعة تقريباً. في البداية، كانت تنفجر ضاحكة بصوت عالٍ، كانت تقهقه عندما أقول أي شيء. بدأت بالكلام، ولكنني ما لبثت أن لذت بالصمت.

قالت:

- «أتدري لماذا أنا سعيدة للغاية؟ سعيدة جداً برؤيتك؟ لماذا أحبك اليوم كثيراً؟».

سألتها، مرتجف القلب:

- «وماذا إذن؟

- أحبك لأنك لم تقع في حبي. رجل آخر، في مكانك، أليس كذلك؟ كان يمكن أن يزعجني، أن يلحّ، أن يتنفس الصعداء ويعاني، بينما أنت، أنت لطيف جداً!».

وفي هذه اللحظة، شدت على يدي بقوة، حتى كدت أن أصرخ. وانفجرت ضاحكة.

وبعد لحظة قالت بجدية تامة:

- «يا إلهي، أي صديق أنت! هو الله الذي وضعك في طريقي! تصور، ماذا كان سيحدث لي لو لم تكن معي في هذه اللحظة؟ يا لنكران ذاتك! كم أحب الطريقة التي تحبني بها! عندما سأتزوج، سوف نكون أصدقاء جداً، أفضل كثيراً من الإخوة. سأحبك تقريباً بقدر حبي له...».

أحسست بحزن رهيب في هذه اللحظة. غير أن شيئاً شبيهاً بالضحك استيقظ في روحي.

قلت:

- «أنت متوترة الأعصاب، إنك خائفة، تعتقدين أنه لن يأتي».

أجابت:

- «يا إلهي! لو كنت أقل سعادة، لكنت الآن أبكي من ارتيابك وعتابك. ومع ذلك، قدمت لي فكرة، وزودتني بمادة للتأمل. ولكن هذا في وقت لاحق: والآن، أعترف لك بأنك على حقّ. أجل! أشعر أنني غريبة، كأنني بكليتي في الانتظار وأشعر دائماً بكل شيء من هذا القبيل بمنتهى السهولة... ولكن، كفى، دعنا من العواطف!».

وفي هذه اللحظة، سمعنا وقع خطوات، وفي الظلام ظهر عابر كان يتقدم نحونا. فاضطربنا معاً، وكادت هي أن تطلق صرخة. أطلقت يدها وقمت بحركة، كما لو كنت أريد أن أتنحى جانباً. ولكننا خدعنا: فلم يكن هو ذلك الرجل العابر.

قالت وهي تمد لي يدها من جديد:

- «مم خفت؟ لماذا تركت يدي؟ وماذا إذن؟ سوف نستقبله معاً. أريد أن يرى كم يحب أحدنا الآخر...».

صحت:

- «كم يحب أحدنا الآخر؟».

وقلت في نفسي: آه، ناستينكا، ناستينكا! كم قلت من أشياء بهذه الكلمة! إن هذا النوع من الحب، أحياناً، يجمّد القلب ويعتصر النفس. إن يدك باردة ويدي ملتهبة كالنار. ما

أشد عماك، يا ناستينكا! آه! إن الناس السعداء لا يطاقون، في بعض اللحظات. ولكنني لا أستطيع أن أغضب منك!

وأخيراً، طفح قلبي، فصحت:

- «اسمعي، يا ناستينكا! أتدرين كيف قضيت نهاري؟

- وإذن، ماذا؟ ماذا إذن؟ احكِ بسرعة! لماذا لم تقل شيئاً حتى الآن؟

- أولاً، يا ناستينكا، قمت بكل ما طلبت مني، فنقلت رسالتك، وزرت ناسك الطيبين... وبعد ذلك، عدت إلى بيتي ونمت».

قاطعتني ضاحكة:

- «هذا كل شيء؟».

أجبتها منقبض القلب، ومغرورق العينين بدموع غبية

- «نعم، هذا كل شيء تقريباً. صحوت قبل موعد لقائنا بساعة، ولكنني شعرت كأنني لم أنم. لا أدري ماذا جرى لي. كنت أمشي، أردت أن أحكي لك كل شيء، كان يبدو لي كأن الزمن توقف بالنسبة إلي، كأن هناك إحساساً وحيداً، وشعوراً فريداً، من تلك اللحظة، كان لا بد أن يبقى في نفسي إلى الأبد، كأن الحياة كلها توقفت بالنسبة إلي... ولما استيقظت بدا لي أنني أسمع أغنية، عرفتها منذ مدة طويلة ولا أدري أين سمعتها، كأنها أغنية منسية ولكنها أغنية عذبة، تذكرتها الآن. كان يبدو لي كأنها كانت، طوال حياتي، تريد أن تنبجس من روحي، ولكنها لم تنطلق إلا الآن...».

قاطعتني ناستينكا:

- «آه، يا إلهي، يا إلهي! ولكن ماذا تقول لي هنا؟ لا أفهم كلمة مما تقول».

أجبتها بصوت حزين كان لا يزال يختفي فيه أمل، رغم أنه بعيد جداً:

- «آه، ناستينكا! كنت أريد بطريقة أو بأخرى أن أنقل لك هذا الإحساس الغريب...».

قالت بصوت خافت، وقد خمّنت الماكرة الصغيرة كل شيء فوراً:

- «كفى، هيا، يكفي».

وما لبثت أن أصبحت بطريقة عجيبة، لا تصدق، ثرثارة، ومرحة، وماكرة. أمسكت بذراعي، وأخذت تضحك، وتطلب مني أن أضحك أنا أيضاً، وكانت كل كلمة مضطربة أنطق بها تثير فيها ضحكة صاخبة، مديدة... وبدأت أشعر بالغيظ، وسرعان ما أخذت تتدلل.

قالت:

- «اسمع إذن، ولكن أتدري أنني مغتاظة منك قليلاً لأنك لم تتوله بي؟ من الصعب فهم الرجال! ولكنك، أيها السيد العنيد، لا تستطيع ألا تهنئني على بساطتي. إنني أقول لك كل شيء، كل شيء، وكل الحماقات التي يمكن أن تخطر في بالي».

قلت لها، عندما بدأت ترنّ دقات الأجراس من برج بعيد في المدينة:

- «اسمعي! إنها الساعة الحادية عشرة، أليس كذلك؟».

توقفت ناستينكا فجأة وكفت عن الضحك، وأخذت تعد دقات الساعة.

وقالت أخيراً بصوت متحير وخجول:

- «نعم، هي الساعة الحادية عشرة».

وسرعان ما ندمت على أنني أفزعتها، وأجبرتها على عدّ دقات الساعة، ولعنت نفسي على هذا الأذى. وحزنت من أجلها، ولم أدرِ كيف أكفر عن ذنبي. وأخذت أسري عنها، وألتمس الأعذار لغياب ذلك الذي كانت تنتظره، باختلاق شتّى أنواع الحجج والبراهين. وما أيسر خداعها في تلك اللحظة، ثم إن جميع الناس في مثل تلك اللحظات يصغون بفرح إلى أي عزاء ويسعدون بكل المعاذير.

وتابعت أقول، محتدماً أكثر فأكثر، ومستغرباً أنا نفسي من الوضوح العجيب لبراهيني:

- «وفضلاً عن ذلك، أنت غريبة، وعلى كل حال، ما كان يمكنه أن يأتي. أنا نفسي، خدعتني، يا ناستينكا، وحيرتني، حتى أني فقدت إحساسي بالزمن... فكري قليلاً: إنه لم يكد يتوصل بالرسالة، فلنفترض أنه لم يستطِع أن يجيء وأن يردّ برسالة، وإذن! فالرسالة لا يمكن أن تصل قبل الغد. غداً، فجراً، سأمضي لاستلامها، وسأخبرك فوراً. وهناك، أخيراً، ألف شيء محتمل: لعله لم يكن في البيت، لما وصلت الرسالة، وربما لم يقرأها حتى الآن، كل شيء ممكن، أليس كذلك؟».

أجابت ناستينكا:

- «نعم، نعم، لم أفكر حتى في ذلك».

ثم واصلت قائلة بصوت متسامح تماماً، ولكن كانت تسمع فيه، مثل نشاز كريه، فكرة أخرى مكتومة:

- «بطبيعة الحال، كل شيء يمكن أن يحدث».

وأردفت قائلة:

- «هذا ما عليك أن تفعله، ستمضي إليه في ساعة مبكرة من صباح الغد، وإذا توصلت بشيء، ستخبرني به فوراً. أنت تعرف أين أسكن؟».

وبدأت تعيد علي العنوان.

وبعد ذلك، أصبحَت شديدة الحنان والحياء معي... كان يبدو أنها تصغي إلى ما كنت أقول لها باهتمام، ولكن عندما أوجّه إليها سؤالاً، كانت تلزم الصمت، وتضطرب وتدير رأسها الصغير الجميل. نظرت إلى عينيها: فرأيتها فعلاً تبكي.

- «هيا، وأخيراً! آه! يا لك من طفلة! ما هذا التصرف الصبياني! كفى بكاء!».

حاولت أن تبتسم، أن تهدأ، ولكن ذقنها كان يرتعش، وظلّ صدرها يهتز لاهجاً.

قالت لي بعد دقيقة صمت:

- «إنني أفكر فيك. أنت طيب جداً. سيكون قلبي من حجر، إذا لم أشعر بذلك؟ أتدري ماذا خطر في بالي الآن؟ كنت أقارن بينكما. لماذا ليس هو أنت؟ لماذا ليس مثلك؟ إنه أقل منك، حتى إن كنت أحبه أكثر منك».

لم أجبها بشيء. كانت تنتظر، فيما يبدو، أن أقول شيئاً.

- «طبعاً، ما زلت لا أعرفه ربما معرفة تامة. أتدري، كما لو كنت أخشاه دوماً، كان جاداً كثيراً، شديد الإباء، كأنه متكبر. طبعاً، أعرف أنه يبدو بهذا المظهر، لكن قلبه أرق من قلبي... أتذكر نظرته إلي حين اقتحمت عليه غرفته حاملة صرتي، أتذكر هذا؟ ولكنني، رغم كل شيء، أظن أنني أحترمه كثيراً، مما يعني أننا لسنا سواء، أليس كذلك؟».

أجبتها:

- «لا، يا ناستينكا، لا، هذا يعني أنك تحبينه أكثر من أي شخص آخر، بل تحبينه أكثر حتى من نفسك».

أجابت ناستينكا الساذجة:

- «نعم، لنفترض أن الأمر كذلك، لكن هل تعلم ما دار في بالي الآن؟ ولكن، ما سأقوله، ليس عنه، سيكون على وجه العموم، فكرت في هذا منذ مدة طويلة. اسمع إذن، لماذا لسنا جميعاً كالإخوة؟ لماذا أفضل إنسان في العالم يخفي دائماً شيئاً عن جاره ويبقى صامتاً أمامه؟ لماذا لا يستطيع المرء أن يفضي صراحة، هنا، والآن، بكل ما في قلبه، ما دام يعرف أنه لن يتكلم هدراً؟ لأن كل شخص يريد أن يظهر نفسه أقسى مما هو في الواقع، كأن الناس جميعاً يخشون تشويه عواطفهم إذا هم عبّروا عنها قبل الأوان...».

قاطعتها، كابحاً أنا نفسي عواطفي أكثر من أي وقت مضى:

- «آه، يا ناستينكا! صحيح ما تقولين! ولكن ذلك ناجم عن أسباب كثيرة».

أجابت ناستينكا بتأثر عميق:

- «كلا! كلا! أنت، على سبيل المثال، لست مثل الآخرين! أنا، حقاً، لا أعرف كيف أصف لك ما أشعر به، ولكن يبدو لي أنك، أنت، على سبيل المثال.. على الأقل في هذه اللحظة... يبدو لي أنك الآن تضحي بنفسك من أجلي!».

قالت ذلك ثم أضافت بخجل، بعد أن ألقت علي نظرة سريعة:

- «فاغفر لي إذا أنا كلمتك هكذا: أنا فتاة بسيطة، لم أعرف بعد من العالم أي شيء تقريباً، وعلى كل حال، لا أعرف أن أتكلم في بعض الأحيان».

وأردفت بصوت مرتعش بعاطفة ما خفية، ولكنها كانت تحاول أن تبتسم:

- «ولكنني أريد فقط أن أعبّر عن امتناني وعرفاني لك بالجميل، وأن أقول لك إنني أنا أيضاً أحس بما تفعله لأجلي... آه! أسأل الله أن يجازيك على كل ذلك بالسعادة! إن ما حكيت لي في ذلك اليوم، عن صاحبك الحالم، خاطئ تماماً، أي، أريد أن أقول، إنه لا يتعلق بك بتاتاً. لقد استعدت عافيتك، أنت حقاً رجل آخر مختلف كلية عن ذلك الذي وصفته. إذا أحببت يوماً، أسأل الله أن يهب لك السعادة معها! أما هي! فلا أتمنى لها شيئاً، لأنني أعرف أنها ستحظى بالسعادة معك. أعرف ذلك، فأنا امرأة، وعليك أن تصدقني إذا قلت لك ذلك...».

صمتت، وشدت على يدي بقوة. وأنا لم أستطع أن أقول شيئاً، من شدة الانفعال.

ومرت بضع دقائق.

قالت أخيراً، وهي ترفع رأسها:

- «نعم، واضح أنه لن يأتي اليوم! فات الأوان!».

قلت لها بصوت جازم وقاطع:

- «سيأتي غداً».

وأضافت، مبتهجة:

- «أجل، أنا أيضاً، أرى أنه سيأتي غداً. حسناً، وإذن إلى اللقاء! إلى الغد! إذا أمطرت السماء، ربما لن آتي. ولكنني سأجيء بعد غد، سأجيء قطعاً، مهما يحدث: كن هنا حتماً، أريد أن أراك، سأحكي لك كل شيء».

وأثناء الفراق، مدت إلي يدها، وقالت لي، وهي تحدق في عيني:

- «الآن، سنبقى دائماً معاً، أليس كذلك؟

- آه، يا ناستينكا ، ناستينكا! لو تعلمين كم أنا الآن وحيد!».

عندما دقت الساعة التاسعة، لم أعد قادراً على البقاء في غرفتي، فارتديت ملابسي، وخرجت رغم رداءة الطقس. وذهبت إلى هناك وجلست على مقعدنا. أردت أن أمرّ بزقاقهم، ولكنني خجلت، وعدت على عقبيّ، دون أن أرفع عينيّ إلى نوافذهم، على بعد خطوتين من منزلهم. ودخلت إلى غرفتي، واستبدّ بي

يأس شديد لم يسبق لي أن شعرت بمثله أبداً. يا له من جو رطب، مضجر! لو كان الجو صحواً لتمشيت هناك طوال الليل...

ولكن، إلى الغد! إلى الغد! غداً ستحكي لي كل شيء.

ومع ذلك، لم تصل منه اليوم رسالة. ولكن هذا أمر طبيعي. إنهما الآن معاً...

الليلة الرابعة

يا الهي، كيف انتهى كل ذلك! بماذا انتهى كل ذلك!

وصلت في الساعة التاسعة. كانت هناك. رأيتها من بعيد. كانت، كما في المرة الأولى، متكئة بمرفقيها على الحاجز الحديدي لرصيف النهر، لم تسمع وقع خطاي وأنا أقترب منها.

ناديتها، محاولاً كبح انفعالي بكل عناء:

- «ناستينكا!».

التفتت نحوي بسرعة وسألتني:

- «وإذن، هيا، قل، أسرع!».

نظرت إليها، مذهولاً.

وكررت علي، متكئة بمرفقها على الحاجز الحديدي:

- «وإذن، أين الرسالة؟ هل تحملها معك؟».

قلت لها أخيراً:

- «لا، ليس معي أية رسالة. ألم يأتِ إذن؟».

امتقع لونها بشكل رهيب، وظلت جامدة تنظر إلي مدة طويلة. لقد حطمت أملها الأخير.

وتمتمت أخيراً بصوت متقطع:

- «طيب، وا أسفاه! ليذهب إلى الجحيم، إذا هجرني هكذا».

خفضت عينيها، ثم، أرادت أن تنظر إلي، ولكنها لم تستطِع. حاولت كبح انفعالها لحظات أخرى، غير أنها استدارت فجأة، واتكأت بمرفقيها على الحاجز الحديدي لرصيف النهر، وأجهشت بالبكاء.

قلت لها:

- «كفى بكاء! كفى بكاء!».

ولكنني لم أستطِع مواصلة الكلام، وأنا أراها على هذه الحال، وماذا كان في وسعي أن أقول لها؟

قالت وهي تنتحب:

- «لا تواسني، لا تكلمني عنه، لا تقل لي إنه سيأتي، وإنه لم يهجرني بطريقة قاسية، وغير إنسانية. كما فعل هذا. ولماذا؟ لماذا؟ أكان هناك شيء في رسالتي... في هذه الرسالة البائسة؟».

وهنا، قطع النحيب صوتها، وانفطر قلبي لمرآها.

واستأنفت كلامها متأوهة:

- «آه، كم هو قاسٍ وفظ القلب! لا سطر ولا كلمة! كان يمكنه أن يردّ عليّ بأنه لم يعد في حاجة إليّ، بأنه يصدني، ولكن لا، طوال ثلاثة أيام كاملة، ولا سطر! ما أسهل عليه أن يهين، ويذلّ فتاة مسكينة لا حمى لها كل ذنبها أنها تحبه! آه، كم عانيت من آلام طوال هذه الأيام الثلاثة! يا إلهي، يا إلهي! عندما أتذكر أنني أنا التي ذهبت لرؤيته أول مرة، أنني أذللت

نفسي أمامه، وتضرعت إليه باكية متوسلة شيئاً يسيراً من حب! وماذا بعد ذلك؟».

وفجأة، توجهت إلي قائلة وعيناها الصغيرتان السوداوان تلتمعان:

- «اسمع، ولكن لا، ليس الأمر هكذا، لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً، أمر غير طبيعي! أحدنا أخطأ دون شك. ربما لم يتوصل بالرسالة؟ ربما لا يعلم شيئاً حتى الآن؟ كيف يمكنه، احكم أنت بنفسك، قل لي، بحق السماء، اشرح لي، أنا لا أستطيع أن أفهمه، كيف يمكنه أن يتصرف معي بمثل هذه الطريقة الفظة والقاسية؟ هل يعقل أن لا يكتب لي كلمة واحدة؟ ولكن حتى أقل امرئ جدير بأكثر من الشفقة. ألا يكون أحد قال له عني شيئاً سيئاً؟».

وصاحت، متوجهة إلي بهذا السؤال:

- «ماذا تقول؟ ما رأيك في ذلك؟

- استمعي إلي، يا ناستينكا، غداً سأمضي إليه مرسلاً منك.

- وماذا إذن؟

- سأسأله، وأحكي له كل شيء.

- طيب، طيب!

- اكتبي إليه رسالة أخرى. لا ترفضي، يا ناستينكا، لا تعترضي! سأجبره على احترام سلوكك، سيعلم كل شيء، وإذا...».

قاطعتني قائلة:

- «لا، يا صديقي، لا، كفى! لن أكتب له كلمة واحدة ولا سطراً! يكفي هذا! أنا لا أعرفه، لم أعد أحبه، سوف أن. . سا. . ه. . . و. . . ».

ولم تكمل جملتها.

قلت لها، وأنا أجلسها على المقعد:

- «اهدئي! اهدئي! اجلسي هنا، يا ناستينكا.

- ولكنني هادئة. كفى! لا بأس! هي دموع، وسوف تجف. أتحسب أنني سأنتحر، أتظن أنني سألقي بنفسي في الماء؟».

طفح قلبي، أردت أن أتكلم، ولكنني لم أستطع أن أنبس بنت شفة.

تابعت وهي تمسك بيدي:

- «اسمع! قل لي: لو كنت مكانه، هل كنت تتصرف على هذا النحو؟ هل كنت تهجر تلك التي جاءت إليك من تلقاء نفسها، وترمي في وجهها بهذه السخرية الوقحة من قلبها الضعيف الغبي؟ أما كنت ترعاها إذن؟ أما كنت تتصورها وحيدة، غير قادرة على الاهتداء إلى طريقها، ولم تعرف كيف تصون نفسها من هذا الحب الذي تشعر به نحوك، وبريئة، نعم، بريئة باختصار. . . لأنها لم تقترف ذنباً على كل حال. . . آه، يا إلهي، يا إلهي».

صحت أخيراً، عاجزاً عن السيطرة على انفعالي:

- «ناستينكا، ناستينكا! إنك تعذبين نفسي! تمزقين قلبي! إنك تقتلينني، يا ناستينكا! ما عدت أطيق الصمت! لا بد لي

أخيراً أن أتكلم، لا بد لي أن أعبّر عن كل ما يغلي هنا، في أعماق هذا القلب. . .».

قلت لها ذلك، ونهضت من مقعدي فأمسكت بيدي ونظرت إلي بذهول، وتمتمت أخيراً:

- «ما بك؟».

قلت لها بحزم:

- «اسمعي! اسمعيني، يا ناستينكا! ما سوف أقوله الآن، ليس إلا حماقات، أمر متعذر تحقيقه، شيء سخيف! أنا أعرف أن ذلك لن يحدث إبداً، غير أنني لا أستطيع أن أظل صامتاً. باسم كل ما عانيت من آلام، أرجوك سلفاً، سامحيني!».

قالت لي، وقد كفت عن البكاء وأخذت تنعم النظر في، بينما كان فضول غريب يلتمع في عينيها الجميلتين المذهولتين:

- «وإذن، ماذا، ماذا هناك؟ ماذا دهاك إذن؟».

قلت لها وحركت يدي باشارة استسلام:

- «هذا أمر متعذر تحقيقه، ولكنني أحبك، يا ناستينكا! هذا ما هناك. ها أنا ذا قلت الآن كل شيء، والآن، سترين إن كنت تستطيعين أن تتكلمي معي كما كنت تفعلين قبل قليل، وإذا كنت تستمعين أخيراً إلى ما سأقول لك. . .».

قاطعتني قائلة:

- «وإذن، ماذا، ماذا إذن؟ وماذا في ذلك؟ أعرف منذ مدة طويلة أنك تحبني! ولكن كان يبدو لي أنك تحبني هكذا، بكل بساطة، لا أدري. . . آه، يا إلهي، يا إلهي!

- في البداية، كان «هكذا» يا ناستينكا، ولكن الآن، الآن،

أنا تماماً مثلك، عندما اقتحمت عليه غرفته حاملة صرتك، بل أنا أسوأ منك، يا ناستينكا، لأنه حينئذ لم يكن يحب أحداً، بينما كنت أنت تحبين.

- ولكن ماذا تقول لي هنا؟ ما عدت أفهمك حقاً! ولكن، اسمع إذن، ما فائدة ذلك، أو بالأحرى، ليس ما الفائدة، ولكن لماذا أنت تقول ذلك وعلى حين غرة. . . يا إلهي، إنني أقول سخافات! ولكنك. . .».

وأصبحت ناستينكا تائهة تماماً، وتضرجت وجنتاها، وخفضت عينيها.

- «ماذا في وسعي أن أفعل، ياناستينكا؟ ما حيلتي في ذلك؟ إنها غلطتي، لقد استغللت ثقتك. . . ولكن لا، لا! ليست غلطتي، يا ناستينكا، إنني أسمعه، أحسه، لأن قلبي يقول لي إنني على حق! لأنني لا أستطيع أبداً أن أهينك بأي شيء! لا أستطيع أبداً أن أجرحك! كنت صديقك، وما زلت صديقك، لم أخنك في أي شيء. انظري، أنا أيضاً، تنسكب دموعي، يا ناستينكا. فلتنسكب، فلتنهمر إذن، إنها لا تزعج أحداً. وسوف تجف، يا ناستينكا. . .».

قالت وهي تدعوني إلى الجلوس على المقعد:

- «آه، ولكن هيا اجلس إذن، اجلس! آه، يا إلهي!

- لا، لن أجلس، يا ناستينكا. الآن، لا أستطيع البقاء هنا، لن تستطيعي أن تريني بعد اليوم. سأقول كل شيء، ثم سأنصرف. كل ما أريد أن أقول، هو أنه ما كان ينبغي أن تعرفي أبداً أنني أحبك. كان علي أن أحمل سري معي إلى قبري. ولما

عذبتك الآن، في مثل هذه اللحظة، بأنانيتي. كلا! ولكنني لم أستطع صبراً، وأنت التي بدأت بالكلام على ذلك، إنها غلطتك، أنت المذنبة الوحيدة، وأنا لا ذنب لي. ولا يمكنك أن تصديني. . .».

قالت لي ناستينكا، وهي تحاول جاهدة إخفاء اضطرابها، الصغيرة المسكينة!

- «بل كلا، كلا! ولكنني لن أصدك، لا، أبداً!

- لن تصديني؟ لا؟ وأنا الذي كنت أريد الآن أن أهرب بعيداً عنك! وسأذهب رغم ذلك. ولكنني، أولاً، سأقول كل شيء، لأنني، عندما كنت تتكلمين، هنا، والآن، لم أقوَ على البقاء في مكاني، عندما كنت تبكين هنا، عندما كنت تتألمين، لأنه، أخيراً، لأنه - آه! دعيني أعبّر عما أفكر فيه! - كنت أظن أنك كنت تتعذبين بسبب صدّه عنك، من رفض حبك، فشعرت، سمعت، أن هنالك فيضاً من الحب، لك، في أعماق قلبي، فيضاً من الحب لك يا ناستينكا! فشق علي كثيراً أن لا أستطيع مساعدتك، بكل هذا الفيض من الحب. . . وكان قلبي ينفطر، و. . . ولم أستطِع أن أظل صامتاً، واضطررت إلى أن أتكلم! كان لا بد لي أن أتكلم، يا ناستينكا!».

قالت بحيوية لا توصف:

- «نعم، نعم! تكلم معي، كلمني بهذه الطريقة. قد يبدو لك هذا غريباً، أن أكلمك هكذا، ولكن، تكلم! أنا، سأتحدث بعدك! سأحكي لك كل شيء!

- أنت تشفقين علي، يا ناستينكا! أنت تشفقين علي، بكل

بساطة، يا صديقتي الرقيقة والطيبة! ما مضى قد مضى وانقضى! وما قيل قد قيل ولا يستعاد! أليس كذلك؟ وإذن، ها أنت الآن تعرفين كل شيء. حسناً، تلك، هي نقطة الانطلاق. جيد جداً! الآن، كل شيء على أفضل حال! ولكن استمعي إلي قليلاً. عندما كنت جالسة هنا، وأنت تبكين، كنت أقول لنفسي - آه، دعيني أعبّر عما فكرت فيه! - كنت أظن أنك - لكن هذا مستحيل، بالطبع، يا ناستينكا - كنت أعتقد أنك... فيما بدا لي... بطريقة أو بأخرى، قد أصبحت، أخيراً، لا تحبينه. وآنذاك - ولم أكفَّ عن التفكير في ذلك منذ يومين، يا ناستينكا - كنت أودُّ أن أتأكد إن كنت تحبينني، ألم تقولي، أنت نفسك، يا ناستينكا، إنك كنت تحبينني تقريباً؟ وإذن، ماذا علي أن أقول بعد ذلك؟ هذا ما كنت أريد أن أقول تقريباً. ولم يبقَ لي أن أقول إلا ما كان يمكن أن يحدث لو أنك أحببتني، ليس إلا هذا، ولا شيء غير ذلك! فاستمعي إلي إذن، يا صديقتي - لأنك صديقتي على كل حال - طبعاً، أنا إنسان بسيط، فقير، لا شأن له، ولكن الأمر لا يتعلق بهذا - ولا أدري لماذا، لا أقول أبداً ما أريد أن أقوله: بسبب الانفعال، يا ناستينكا - لأن حبي لك حب قوي جداً، وحتى لو بقيت تحبين ذلك الآخر الذي لا أعرفه، فلن يكون حبي لك شاقاً عليك بتاتاً. وكل ما يمكنك أن تسمعيه وتحسي به في أية لحظة هو نبض قلب مفعم عرفاناً لك بالجميل ومضطرم شغفاً بك إلى جانب قلبك... آه! ناستينكا، ناستينكا! ماذا صنعت بي؟».

قالت لي وهي تنهض عن مقعدنا بسرعة:

- «لا تبكِ، لا أريد أن أراك باكياً. هيا بنا! انهض، تعال معي، لا تبكِ إذن، لا تبكِ».

كانت وهي تتكلم تمسح دموعي بمنديلها ثم أضافت قائلة:

- «هيا، الآن، هيا بنا. سوف أقول لك ربما شيئاً آخر... نعم! ما دام قد هجرني الآن، ما دام قد نسيني، رغم أنني ما زلت أحبه «لا أريد أن أخدعك»... ولكن اسمعني إذن، وأجبني. لو أنني مثلاً أحببتك، أريد أن أقول فقط لو أنني... آه! يا صديقي، صديقي، حين أستعيد التفكير في ذلك، عندما أتذكر أنني جرحتك في ذلك اليوم، أنني استهنت بحبك، وهنأتك على أنك لم تتوله بحبي! يا إلهي! كيف لم أتوقع ذلك، كيف لم أتوقعه... كيف كنت شديدة الغباء... ولكن... أخيراً، حسناً، لقد قررت، سوف أقول كل شيء...

- اسمعي، يا ناستينكا، أتدرين؟ سأدعك، هذا كل شيء! إنني أعذبك حقاً. ها هو ذا ضميرك يؤنبك الآن، على استخفافك بحبي، وأنا لا أريد أن أفاقم حزنك، كلا... أنا المذنب، طبعاً، يا ناستينكا، ولكن وداعاً!

- انتظر! اسمع قليلاً! أتستطيع أن تنتظر؟

- أنتظر ماذا؟ كيف؟

- أنا أحبه. ولكن هذا الحب سينتهي، لا بد أن ينقضي، ولا يمكن ألا يزول. وهو ينقضي الآن، أحس بذلك... من يدري، ربما ستكون نهايته في هذا اليوم نفسه، لأنني أكرهه، لأنه يستهزئ بي، أما أنت، فقد بكيت هنا معي، لأنك لم تصدني مثله، لأنك تحبني، بينما هو لم يحبني قط، لأنني أنا

أحبك، باختصار. . . نعم، أنا أحبك! أحبك بقدر ما تحبني. أنا التي قلت لك ذلك، أول مرة، وأنت سمعته بنفسك، أليس كذلك؟ وإذا كنت أحبك، فلأنك أفضل منه، وأنك أنبل منه، ولأنه هو. . .».

إن انفعال البنت المسكينة كان قوياً جداً، حتى إنها لم تستطع إكمال جملتها، وضعت رأسها على كتفي، ثم فوق صدري، وذرفت دموعاً غزيرة ومريرة. آسيتها، حاولت تهدئتها، ولكنها لم تتوقف ولم تكفّ عن الضغط على يدي بقوة، وهي تقول لي من خلال دموعها:

انتظر، انتظر. انظر، سأكف حالاً، سأتوقف الآن فوراً! أريد أن أقول لك. . . لا تتصور أن هذه الدموع. . . لا، إنها تنسكب هكذا، بسبب الضعف، انتظر، سوف ينتهي كل شيء. . .

وفي آخر الأمر، كفت، توقفت، وجفت دموعها، وتابعنا سيرنا. أردت أن أكلمها، ولكنها رجتني أن أنتظر وقتاً طويلاً؟ فصمتنا. . . وما لبثت أخيراً أن استجمعت كل شجاعتها وأخذت تتكلم.

قالت بصوت ضعيف ومرتعش، ولكن رنَّ فيه فجأة شيء اخترق قلبي حقاً وأحدث فيه ألماً لذيذاً:

- «اسمع، لا تظن أنني طائشة ومبدّلة في حبها، لا تظن أنني قادرة على النسيان بسرعة والخيانة بسهولة. . . لقد أحببته سنة كاملة ويميناً لم أخنه أبداً ولو بالخيال. فاحتقر هو ذلك واستهزأ بي، جازاه الله خيراً! ولكنه جرحني وأهان قلبي. إنني. . . أنا لا أحبه، لأنني لا أريد أن أحب إلا من هو نبيل،

من يفهمني، ومن هو شريف، لأنني هكذا خلقت أنا نفسي! وهو غير جدير بي، وإذن، جازاه الله خيراً! ومن الأفضل أن هذا قد حدث الآن، لأن أملي كان سيخيب، حين أكتشفه على حقيقته... حسناً، قضي الأمر!».

وتابعت كلامها بعد أن شدت على يدي:

- «ولكن، من يدري؟ يا صديقي، من يدري؟ ربما لم يكن كل حبي إلا خداع حواس وخيال، ربما لم يبدأ إلا بتصرف صبياني، وباقتراف لحماقات، لأنني كنت تحت مراقبة جدتي؟ ربما كان علي أن أحب رجلاً آخر وليس هو، نعم، رجلاً آخر يشفق علي و... و... هيا، دعنا من ذلك! دعنا من ذلك!».

قاطعت نفسها لاهثة من الانفعال، ثم قالت:

- «كنت أريد أن أقول لك فقط... كنت أريد أن أقول لك، إن كنت، رغم أنني أحبه (لا، رغم أني كنت أحبه) إذا كنت، رغم ما ستقول أيضاً، تحس بأن حبك من القوة بحيث يستطيع أخيراً أن يطرد من قلبي ذلك الذي كنت... إذا كنت تريد أن تحنو علي، إذا كنت ترفض أن تتركني وحيدة لمصيري، بلا عزاء، ومن دون أمل، إذا كنت تريد أن تحبني دائماً، كما تحبني الآن، فأنا إذن أؤكد لك امتناني وعرفاني بالجميل... وسيكون حبي جديراً بحبك... هل تأخذ يدي، الآن؟».

صحت مختنقاً بالنحيب:

- «ناستينكا، آه، يا ناستينكا!».

قالت فجأة وهي تحاول جاهدة أن تسيطر على نفسها:

- «حسناً، كفى، كفى! هيا، يكفي هذا حقاً! الآن قبل كل

شيء، أليس كذلك؟ نعم؟ طيب، أنت سعيد، وأنا أيضاً سعيدة، ولكن لا كلمة حول ذلك، انتظر، رفقاً بي... تكلم في شيء آخر، بحق السماء!

- نعم، يا ناستينكا! نعم! كفى كلاماً عن ذلك، الآن، أنا سعيد، أنا... طيب، يا ناستينكا، حسناً، لنتحدث عن شيء آخر، بسرعة، لنتكلم بسرعة، أجل! أنا مستعد...».

ولم نعرف ماذا نقول، كنا نضحك، ونبكي، وقلنا آلاف الكلمات بلا رأس ولا عقب، كنا نمشي تارة على رصيف النهر، ثم نعود على أعقابنا تارة أخرى ونعبُر الشارع، ثم نتوقف، ثم نعود من جديد إلى رصيف النهر، كنا كالأطفال...

قلت بصوت خافت:

- «أنا الآن أعيش وحيداً، يا ناستينكا، ولكن، غداً... طيب، طبعاً، أنت تعلمين ذلك، يا ناستينكا، أنا فقير، وكل ما لدي ألف ومائتا روبل في السنة، ولكن هذا ليس مهماً...

- بطبيعة الحال، لا يهم هذا، لجدتي معاش، فلن تكون عالة علينا. يجب أن تعيش معنا، جدتي.

- طبعاً، يجب أن تكون معنا، ولكن، هناك ماتريونا...

- آه، ولكن، نحن أيضاً، عندنا فيوكلا.

- ماتريونا امرأة طيبة، ولكن عيبها الوحيد: إنها تفتقر إلى الخيال، يا ناستينكا، ليس لها ذرة من خيال، ولكن هذا ليس مهماً.

- لا يهم، يمكنهما أن تتفاهما، ولكن أنت، تعال إلينا منذ الغد.

- كيف هذا؟ عندكم؟ طيب، أنا مستعد. . .

- نعم، ستصبح مستأجراً عندنا، لدينا غرفة في أعلى البيت، كانت تسكن فيها مستأجرة، سيدة عجوز نبيلة، رحلت، وأنا أعرف أن جدتي تفضل مستأجراً شاباً، ولما سألتها: لماذا تريده شاباً؟ قالت: هكذا، أنا الآن عجوز، ولكن، لا تتصوري أنني أريد أن أزوجك، وأدركت أنا أن هذا هو ما كانت تريد.

- آه! ناستينكا!».

وانفجرنا بالضحك.

قالت:

- «هيا، يكفي هذا! يكفي إذن! ولكن، أين تسكن؟ نسيت.

- هناك، قرب جسر - سكويْ، منزل بارانّيكوف.

- ذلك المنزل الكبير؟.

- نعم، ذلك المنزل الكبير.

- آه! أعرف: إنه منزل جميل. ولكن، أتدري، اتركه وانتقل إلى بيتنا في أقرب وقت ممكن.

- منذ الغد، يا ناستينكا، منذ الغد. ما زال عليّ قدر صغير من واجب الكراء، ولكن هذا لا يهم، سأتقاضى راتبي قريباً. . .

- ولكن، أتدري، ربما، أستطيع أن أعطي دروساً. أولاً سأتلقى دروساً، وبعد ذلك سوف أعطي دروساً. . .

- وإذن ممتاز. . . وسأتلقى أنا مكافأة قريباً، يا ناستينكا. . .

- وإذن، ستأتي غداً، وستكون مستأجراً عندي.

- نعم، وسنذهب إلى المسرح معاً، نشاهد «حلاق إشبيلية» لأنها ستعرض من جديد قريباً. . .».

قالت ناستينكا باسمة:

- «نعم، سنذهب معاً، لا، من الأفضل ألا نشاهد «الحلاق»، بل شيئاً آخر. . .

- طيب، رائع، نشاهد شيئاً آخر. . هذا أفضل حقاً. لم يخطر في بالي ذلك».

كنا نتكلم هكذا، ونحن نسير معاً، كأننا ثملان، كما في ضباب، لا ندري ما يجري لنا. كنا نتوقف تارة ونتحدث طويلاً في نفس المكان، وتارة أخرى نواصل سيرنا ونجد نفسينا حيث يعلم الله، ومن جديد، تنطلق الضحكات، وتنسكب الدموع. . . وفجأة كانت ناستينكا تريد أن تعود إلى البيت، وكنت أنا لا أستطيع أن أمنعها وأحب أن أرافقها حتى تصل إلى باب بيتها، وكنا نسير، وإذا بنا، بعد ربع ساعة، نجد نفسينا على رصيف النهر، أمام مقعدنا. كانت تتأوه تارة، وطوراً كانت تطفر من عينيها دمعات صغيرة. كان ينتابني الخوف، وأرتجف. . . لكنها كانت فوراً تشد على يدي وتجرني من جديد، لنسير، ونثرثر، ونتحدث. . .

قالت ناستينكا أخيراً:

- «حان الوقت، الآن، يجب أن أعود إلى البيت، فقد تأخر الوقت كثيراً، كفى صبيانية!

- نعم، ناستينكا، ولكنني، الآن، لا أستطيع أن أنام، لن أعود إلى البيت.

- وأنا أيضاً، لا أظن أنني سأنام، ولكنك سوف ترافقني من جديد؟

- طبعاً.

- ولكنك، في هذه المرة، سترافقني حتى باب البيت.

- طبعاً، طبعاً!

- تعدني بذلك حقاً؟ على كل حال، لا بد من الدخول إلى المنزل، عاجلاً أم آجلاً».

أجبتها باسماً:

- «أعدك بذلك وعداً قاطعاً.

- وإذن، هيا بنا!

- هيا بنا. تطلعي إلى السماء، يا ناستينكا، انظري! غداً سيكون نهاراً رائعاً، ما أجمل السماء الزرقاء، وما أبهى هذا القمر! انظري إلى هذه الغمامة الصفراء التي ستحجبه الآن، انظري، انظري! لا، لقد مرت جانباً. ولكن انظري، انظري إذن!».

لم تكن ناستينكا تنظر إلى الغمامة: كانت تقف صامتة، كأنها جامدة في مكانها، وبعد هنيهة، تعلقت بي. بشكل وثيق وبخجل. وأخذت يدها ترتعش في يدي، نظرت إليها... فازدادت تعلقاً بي والتصاقاً.

وفي هذه اللحظة، مرّ من أمامنا شاب. وقف فجأة، حدق فينا، ثم مشى، مرة أخرى، خطوات. أخذ قلبي يخفق...

سألتها بصوت خافت:

- «ناستينكا، من هذا؟».

أجابت بهمس وهي تزداد التصاقاً بي وأشد ارتجافاً، وأنا بالكاد أستطيع الوقوف على ساقي:

- «إنه هو!».

صاح صوت من خلفنا:

- «ناستينكا! ناستينكا! هذه أنت!».

وبعد لحظات، تقدم الشاب نحونا بضع خطوات.

يا إلهي، أية صيحة!

ما أشد ما اضطربت! وما أسرع ما انتزعت نفسها من بين ذراعي وهرعت إليه! بقيت هنا، أنظر إليهما، أسيان. إلا أنها لم تكد تصافحه، وترتمي بين أحضانه، حتى اندفعت نحوي فجأة، مرة أخرى، وألفت نفسها بجانبي، كالريح، كالبرق، وحتى دون أن أثوب إلى رشدي، تعلقت برقبتي، وطبعت على خدي قبلة حارة. ثم، دون أن تنبس ببنت شفة، ركضت من جديد مسرعة إليه، فتناولت يده وجرته وراءها.

بقيت طويلاً هناك، أتابعهما بنظراتي... وأخيراً، غابا معاً عن بصري.

الصباح

لقد تمّت ليالي في هذا الصباح. كان يوماً كالحا. كان المطر ينهمر، قارعاً زجاج نوافذي بحزن، وكانت غرفتي قاتمة، وفي الخارج كانت السماء رمادية. كنت أعاني من صداع في رأسي ومن الدوار والحمى التي كانت تجتاح كل كياني.

تناهى إلي صوت ماتريونا آتياً من أعلى:

- «رسالة لك يا سيدي، حملها ساعي البريد».

صحت قافزاً من مقعدي:

- «رسالة؟ ممن؟

- لا أدري، يا سيدي، انظر، ربما، مكتوب فيها، ممن».

فضضت الغلاف. كانت الرسالة منها!

كتبت إلي ناستينكا:

«آه! اغفر لي! أتضرع إليك راكعة على ركبتي أن تصفح عني. لقد خدعتك وخدعت نفسي. كان حلماً، خيالاً... ما أشد ما أتألم من أجلك اليوم، فاصفح عني، سامحني!

لا تتهمني، لأنه لم يتغير في شيء فيما يتعلق بك. لقد قلت لك إنني سأحبك، وما زلت أحبك حتى الآن، بل إني أحبك

أكثر من أي وقت مضى. آه، يا إلهي! ليتني استطعت أن أحب اثنين في وقت واحد! آه، ليتك كنت أنت هو!».

«آه، ليته كان هو أنت!».

هذه الجملة عبرت برأسي. أتذكر كلماتك، يا ناستينكا!

«يعلم الله ماذا كنت أريد أن أفعل الآن من أجلك! أعرف أنك متألم وحزين. لقد أسأت إليك، ولكن، أنت تعلم، أن من يحبّ ينسى الإساءات؟ وأنت تحبّ!

أنا أشكرك! نعم! أشكرك على هذا الحب. لأنه محفور في ذاكرتي، كحلم جميل، يتذكره المرء بعد اليقظة زمناً طويلاً، لأنني سأتذكر دائماً تلك اللحظة، التي فتحت لي فيها قلبك، بكل ودّ وإخاء، وقبلت بكل نبل وسخاء قلبي الجريح لتحميه، وتواسيه، وتشفيه... فإذا غفرت لي، فإن ذكراك ستعيش معي دائماً كشعور نبيل بالامتنان والعرفان لك بالجميل، لن يمَّحي يوماً من روحي... سأحافظ على هذه الذكرى، سأكون وفية لها، لن أخونها، ولن أخون قلبي: لأنه ثابت وقوي جداً. وحتى أمس، عاد بسرعة إلى ذلك الذي امتلكه إلى الأبد.

سوف نلتقي. ستأتي لزيارتنا، لن تهجرنا، ستبقى دائماً صديقي، دائماً أخي... وعندما ستراني، ستمد لي يدك، ستمدها إلي، أليس كذلك؟ فقد صفحت عني، أليس كذلك؟ أنت تحبني كما من قبل؟

آه! أحبني، لا تتركني، لأنني أحبك كثيراً في هذه اللحظة، لأنني جديرة بحبك، لأنني أستحقه، يا صديقي العزيز! في الأسبوع المقبل سأتزوجه، لقد عاد إلي طافحاً حباً ولم ينسني

أبداً. . . لا تغضب إذا أنا حدثتك عنه. أحب أن آتي لزيارتك معه: سوف تحبه، أليس كذلك؟

سامحني! تذكر وأحب عزيزتك.

«ناستينكا».

مراراً وتكراراً قرأت الرسالة. وانسكبت من عينيّ الدموع. وأفلتت الرسالة من يديّ أخيراً فأخفيت وجهي بكفيّ.

صاحت ماتريونا:

- «ولدي العزيز! إيه! بنيّ العزيز!

- ماذا، أيتها العجوز؟

- وإذن، نسيج العنكبوت، أزلته، من سقفك، الآن، تستطيع حتى تتزوج، تستطيع أن تدعو الضيوف، آن الأوان. . .».

تطلعت إلى ماتريونا. . . إنها امرأة لا تزال في كامل صحتها، عجوزاً شابة، ولكن، لا أدري لماذا بدت لي كابية النظرة، متغضنة الوجه، مقوسة الظهر، منهكة القُوى. . . ولا أدري لماذا، بدا لي فجأة أن غرفتي هرمت مثل ماتريونا. كانت الجدران والأرضية شاحبة الألوان، كل شيء كان باهتاً، وخيوط العنكبوت لا تزال تتضاعف. ولا أدري لماذا، عندما تطلعت من النافذة، بدا لي أن المنزل المقابل، قد هرم وبهت لونه هو أيضاً، وأن مِلاط أعمدته قد تقشر وسقط، واسودت أفاريزه وتصدّعت، وأصبحت جدرانه مبقعة بعد أن كانت صفراء قاتمة. . .

إما أن شعاعاً من الشمس قد اخترق غيمة ضخمة سوداء، واختبأ من جديد خلف غيمة مثقلة بالمطر، فاكفهرّ كل شيء مرة أخرى في نظري، أو ربما مرّ من أمامي في لمح البصر، كل مستقبلي، مزعجاً وحزيناً، فرأيت نفسي كما أنا اليوم، ولكن بعد خمسة عشر عاماً تماماً، هرماً في هذه الغرفة نفسها، وهذه الوحدة ذاتها، مع ماتريونا هذه عينها، التي لم تنل من كل هذه السنين ذرة واحدة من الحكمة.

ولكنني لا أودّ أن أتذكر جرحي، يا ناستينكا! لا أريد أن ألقي بسحابة سوداء على سعادتك الصافية والهادئة، لا أحبّ أن أبعث الأسى في قلبك، بالعتاب المرير، ولا أن أجرحه بعذاب الضمير الخفيّ وأن أضطره إلى أن يخفق بحزن في هذه اللحظات من السعادة، لا ولا أن أدعك أية زهرة من تلك الزهيرات الناعمة، التي ستضفرينها في خصلاتك السود يوم تذهبين معه إلى هيكل الكنيسة للزفاف. . .

آه! لا، أبداً، أبداً! ألا فلتكن سماؤك صافية، ألا فلتكن بسمتك الجميلة دائماً مشرقة ومطمئنة، ولتكوني أنت مباركة على لحظة الغبطة والسعادة، التي وهبتها لقلب آخر ممتنّ يعيش في وحشة الوحدة!

يا إلهي! لحظة مليئة بالسعادة! ولكن أليس هذا كافياً لمدى الحياة؟

الهوامش

(1) تشتهر مدينة سان بطرسبورغ بلياليها البيضاء التي تبدأ في 25 مايو وتنتهي في 17 يوليو، والليالي البيضاء ظاهرة طبيعية خارقة مدهشة، حيث يلتقي الشروق والغروب ويطول النهار بشكل غير طبيعي في مطلع الصيف ولا يعود لليل وجود تقريباً، إذ لا يبقى منه غير ساعتين أو ثلاث، وهي عيد أيضاً تقام في بهاء أيامه ولياليه البيضاء شتى المهرجانات الفنية والاحتفالات الشعبية طوال ثمانين أمسية لا تغيب عنها الشمس ولا يحل فيها الظلام ولا ينام غالباً سكان وسياح المدينة الذين يتجولون في رحاب شوارعها ومتنزهاتها الكثيرة ويستمتعون بجمال الليالي الدافئة المضيئة البيضاء ويتصوير جسور نهر النيفا المتحركة والمرفوعة . . .

(2) شارع نيفسكي، حديقة الصيف، أرصفة نهر النيفا، من أجمل أماكن النزهة في بطرسبورغ.

(3) فونتانكا: نهر يجتاز المدينة.

(4) إمبراطورية السماء: الصين التي كان الأصفر لونها الرسمي.

(5) داتشا: بيت روسي ريفي صيفي وخشبي غالباً.

(6) مجموعة جزر: بيتروفسكي، كريستوفسكي، أبتيكارسكي، إيلاغين، كامينّي، بيتيرهوف، وهي مناطق اصطياف، للأثرياء، قريبة من سان بطرسبورغ وبارغولوفو، تبعد عن العاصمة بخمسة عشر كلم على الطريق المؤدي إلى فنلندا، وهي كلها شهيرة بطبيعتها الخلابة الخضراء وفيلاتها الريفية الصيفية الجميلة.

(7) النهر الأسود قريب من المدينة.

(8) فْراك: لباس رسمي، أسود ضيق، بذلة سهرة.

(9) ناستينكا: صيغة التصغير الحميمي لاسم ناستاسيا المستخدم غالباً من الوالدين لنداء البنت الصغيرة.

(10) فاسيلي جوكوفسكي (1783-1852): الشاعر الروسي الرومانسي الشهير.

(11) إرنست هوفمان: الكاتب الرومانسي الألماني الروائي والملحّن، رائد أدب الخيال (الفنتازيا) وبطل أوبرا أوفنباخ بعنوان «حكايات هوفمان» وهو أيضاً مؤلف الحكاية الخرافية «كسارة البندق وملك الفئران» التي ألهمت باليه «كسارة البندق»، إحدى روائع الموسيقار الروسي تشايكوفسكي.

(12) سان بارتيليمي: مذبحة حدثت في باريس عام 1572 قتل فيها عشرات الآلاف من البروتستانت على أيدي المتعصبين الكاثوليك.

(13) شخصيات روائية لوالتر سكوت: ديان فيرنون، كلارا موفري، إيفي دينز، مينّا وبريندا.

(14) جان هوس: مفكر ومصلح ديني تشيكي، اتهم بالهرطقة وأعدم حرقاً عام 1415.

(15) معركة بيريزينا: وقعت عام 1812 بين جيش نابليون الفرنسي والجيش الروسي، قرب نهر بيريزينا في ضواحي مدينة بوريسوف، في روسيا البيضاء (بيلاروسيا).

(16) البارونة ف...ا د...ا ربما هي فورونتسوفا داشكوفيا، والقصيدة لبوشكين.

(17) جورج دانتون: من زعماء الثورة الفرنسية، اتهم بالتآمر لإعادة الملكية، أعدم بالمقصلة عام 1794.

(18) المنزل الصغير في كولومنا: رواية شعرية ساخرة لبوشكين (عن فتاة تعيش وحيدة مع أمها العجوز، في حي كولومنا - حيث تجري أحداث رواية دوستويفسكي - تفاجئ خادمتهما الطباخة يوماً وهي تحلق لحيتها). وكولومنا: مدينة صغيرة، واقعة على مسافة 25 كلم من بطرسبورغ، مشهورة بحفلاتها الموسيقية.

(19) ولا غرو بالتالي أن تعتبر هذه الليالي البيضاء من خلال صورها وتصديرها الشعري وتنوع أساليبها وفي مجملها تكريماً متعدد الجوانب للشاعر الروسي.

(20) زمناً طويلاً، وبرقّة وحنان: مقتطف صار مثلاً من ترجمة ميخائيل ليرمونتوف لقصيدة الشاعر الرومانسي الألماني الشهير هاينريش هاينه.

(21) إيفانهويه (*Ivanhoé*): أشهر روايات السِّير والتر سكوت ترجمت مراراً إلى الروسية.

(22) حلاق إشبيلية: أوبرا هزلية ألّف موسيقاها ج. روسيني. أخذت الأوبرا عن مسرحية بنفس العنوان لبومارشي، حولها جيوفاني بايسييلو إلى عرض أوبرالي ولكنها لم تكتسب شهرتها العالمية إلا على يد الموسيقار روسيني الذي أعاد تأليف الأوبرا بأسلوب جديد أروع ما فيه موسيقاه الخالدة. تدور الأوبرا حول قصة حب بين الشاب الكونت ألمافيفا والشابة روزين ويرغبان بالزواج إلا أن الوصي عليها بارتولو طامع في أموالها التي ستزول إليها عند بلوغها الثامنة عشرة. وهنا يظهر الحلاق فيغارو، فيتمكن من إفشال مخطط الوصي وينتهي العمل نهاية سعيدة بانتصار الحب وزواج الحبيبين. وفي أحد المشاهد تحتال روزين على الوصي الطامع في ثروتها فتسقط رسالة من خلال الشرفة إلى الحبيب المجهول تخبره بأنها تشعر بحبه.

المحتويات

الليالي البيضاء رواية عاطفية تحكي عن أربع ليال في مدينة بطرسبورغ، بلياليها القصيرة التي ترمز إلى قصة الحب العابرة التي يرويها لنا دوستويفسكي .

شاب وحيد وورومانسي يلتقي ذات ليلة في أحد شوارع بطرسبورغ المعتمة بفتاة باكية تأمل قدوم حبيبها. تتماهى ناستينكا مع خيال الشاب الذي وقع في حبها منذ اللحظة الأولى، وتواسيه بسراب حب وليد.

تتناول هذه الرواية بصفحات قليلة أشياء كثيرة: هذيان شاب حالم، آمال فتاة مغرمة، قصة لقاء ناجح وحب فاشل، مبررات وأعذار العاشق في لحظة الانتظار الغرامي ... وذلك بأسلوب فذ وجميل تميز به دوستويفسكي، هذا الروائي العظيم الذي لم يكف طوال حياته عن الغوص في النفس البشرية، والكشف عن أعماقها ومكنوناتها..

ترجمة: إدريس الملياني

لوحة الغلاف للفنان غوخ




الدار البيضاء: ص.ب. 4006 (سيدنا)
بيروت : ص.ب. 118/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

